د. محمد مورو

قاتلنا فانتصرنا

موجز لبطولات الجيش المصري في حرب رمضان وتحية عطرة للشهداء



١٠ صفية زغلول - القصر العيني - الدور الرابع
شقة ٢٣ - ت: ٣٥٦٢١٣٥ - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

لم تكن حرب رمضان مجرد حرب عسكرية انتصر فيها الجيش المصرى على القوات الصهيونية . أنها أكبر من مجرد حرب وأكثر من مجرد انتصار ولا يعرف أهمية تلك الحرب - وهذا الانتصار إلا من عاش تلك الفترة وما قبلها وعانى من عشرات المشاعر والتحولات وخاصة هذا الجيل الذى كان فى بداية وعيه السياسى بما حوله وبما يعيشه . وكنت واحدا من هؤلاء .

وأذكر أننى كنت فى عام ١٩٧١ فى بداية المرحلة الثانوية - وكيف أننى كنت أشعر بيأس قاتل وأحساس بالضياع عقب سلسلة من المقالات كتبها الصحفى محمد حسنين هيكل فى جريدة الأهرام قال فيها أن حالة الاسترخاء العسكرى « اللا سلم واللا حرب » سوف تستمر طويلا لأن تلك الحالة تتفق مع مصالح الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وأوروبا الغربية وكل من هب ودب - وأن الجيش المصرى غير قادر نظريا وعمليا على العبور ، وأعتقد أن حالة الأحباط المرير لم تكن من نصيبى وحدى بل كانت من نصيب كل مصرى .

وعلى الجانب الآخر . فى ذلك اليوم من رمضان عندما انطلقت القوات الصائمة لتعبر قناة السويس وتلتحم فى قتال مباشر مع القوات اليهودية - كان تيارٌ من الدم الجديد يسرى فى عروقنا وقلوبنا - وكيف ارتفع اهتمامنا بالأحداث إلى درجة تفوق الوصف - وكيف كنا نتابع أنباء المعارك لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة عبر موجات كل الإذاعات التى يستطيع الراديو

التقاطها . ليس هذا فحسب - بل كان هناك تحليلان يوميان طويلان عن أنباء المعارك كنا نستمع إليهما فى المسجد عقب صلاة العشاء وصلاة الفجر يوميا - وهما الصلاتان اللتان يكتظ خلالهما المسجد بالمصلين فى شهر رمضان الكريم .

وأذكر أنه منذ اليوم الأول للمعركة - كان الشعب - كل الشعب - على قدر هائل من المسئولية والمشاركة والإيجابية . وكيف أننا ذهبنا فى يوم ١١ رمضان وهو اليوم الثانى للمعركة إلى الوحدة الصحية بقريتنا دنديط مركز ميت غمر - دقهلية نطلب إلى طبيب الوحدة أن يأخذ منا دماءاً للجرحى والمصابين - وكيف أنه اكتفى بأن سجل أسماءنا وطلب الانصراف حيث أن إمكانيات تخزين الدم ليست متوفرة لديه وأنه عند الحاجة سوف يتصل بنا - وكيف أنه قد تعجب لأن القافلة كانت كبيرة جدا بحيث أنها تضم أبناء القرية جميعا رجالا ونساءاً وأطفالا ، وأذكر أننا جلسنا فى فناء الوحدة الصحية صائحين بضرورة السماح لنا بالتبرع بالدم وأننا لن ننصرف دون ذلك - وكيف أن بعضنا قام فينا خطيبا وأرشدنا إلى أن المشاركة فى المعركة ليست قاصرة على التبرع بالدم ، وأن هناك وسائل أخرى - وكيف أننا اتفقنا على تشكيل مجموعة عمل تنطلق من المساجد وتقوم بزيارة أهالى الجنود وتقديم أى خدمة لهم - كما أننا قررنا أن نجمع من أهالى القرية الخبز والسمن والسكر المعد لعمل كعك العيد وإرساله إلى الجنود فى جبهة القتال .

* * * *

استطاع المقاتل المصرى فى حرب رمضان برغم ميل التوازن العسكرى لصالح العدو - استطاع أن يحقق نصرا تاريخيا وأن ينجز إنجازات

عسكرية فذه على كل مستوى - واستطاع الشعب المصرى أن يحقق تفاعلا ومشاركة هائلة . وكل هذا يثبت أن الإنسان المصرى أصيل وكفء - وأنه قادر دائما على تحقيق الانتصار فى كل مجال . وأن العيب دائما لم يكن فى هذا الإنسان - بل فى القوى التى ضربت حصارا طويلا حوله بهدف حرمانه من المشاركة فى بناء حياته والاكتفاء بدور المتفرج . بل إننا نؤكد أن تلك القوى مازالت تعمل فينا فعل الإثم وتهدف إلى إسقاط ثقة الشعب فى نفسه وسحب كل ما من شأنه أن يحقق له تلك الثقة وإيهام الشعب بأنه متخلف وغبى وغير قادر بل وإستئصال كل إنسان متماسك وجرئ وشجاع ويفكر إما بالقهر والذل أو الاعتقال أو الرشوة - « الترهيب والترغيب » .

إن حرب رمضان والمشاركة الشعبية فيها وذلك التلاحم الفذ بين كل قطاعات الشعب المصرى والجيش المصرى لو قدر لآثارها النفسية أن تعمل عملها لكان واقعنا الآن مختلفا - ولكن القوى المتربصة بنا عملت بلا كلل ولا ملل على تآكل تلك الآثار وسحبها من وعى أمتنا وتغييب جوانبها الإيجابية وذلك لحساب أعدائنا الذين لا يريدون لنا خيرا ولا تقدما ولا رقيا .

* * * *

إننا فى هذا البحث الموجز سنقدم ملامح من معجزات الجيش المصرى الفذ والشعب المصرى الأصيل - دون أن نتطرق إلى الإدارة السياسية لآثار المعارك وإن كان لنا رأيا مخالفا لما هو سائد أو ساد بشأنها وذلك لأن هذا ليس داخلا فى الموضوع فى هذا البحث ويمكن أن يكون موضوعا لبحث مستقل ، إننا هنا سنكتفى بالإجابة على سؤال هام - لماذا انتصرنا

فى رمضان – وما هى العوامل الموضوعية التى أدت إلى هذا الإنجاز الرائع – وهل يصلح الإنسان المصرى بتركيبته الخاصة أن يخوض معاركه فى كافة المجالات وأن ينتصر فيها .

* * * *

إننا أيضا لن نتطرق إلى موضوعات أخرى جانبية – ليس لعدم أهميتها ولكن لأن لها أبحاث مستقلة ربما نعود إليها يوما – مثل موضوعات الخلاف حول طريقة معالجة الثغرة أو قبول وقف إطلاق النار أو هل كانت المعركة معركة تحرير أم تحريك – وغيرها من القضايا المرتبطة بالمفاوضات التى أعقبت الحرب .

د . محمد مورو

والأصح أن نقول الشعب المظلوم - فليس الجيش وحده الذى ظلم ولكن الشعب كله - فمن ناحية فالجيش جزء من الشعب وما يمس هذا يمس ذاك ومن ناحية ثانية فالهزائم أو الانتصارات لا تمس الجيش وحده ولكنها تمس الشعب كله، بل تمس كل الأمة الإسلامية لاعتبارات كثيرة . ومن ناحية ثالثة فإن السياسة المتبعة والتى أدت إلى الهزيمة كانت موجهة إلى الشعب كله وليس الجيش وحده .

والآن لنصل إلى سؤال هام - هل انتصار رمضان هو القاعدة وغيره الاستثناء - أم العكس صحيحا وخاصة أن الهزائم كانت ثلاث فى ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ والانتصار كان وحيدا فى ١٩٧٣ .

وفى الواقع فإن الإجابة على السؤال تفتح عددا من القضايا الهامة - بل وتعرى أكاذيب المدرسة الاستعمارية .

فالمدرسة الاستعمارية تروج دائما بأنه لا قبل لنا بمحاربة إسرائيل ولا الانتصار عليها - لسبب بسيط هو أن إسرائيل جزء من الحضارة الغربية المتفوقة علينا تقنيا وعسكريا . وهؤلاء يحسبون النصر والهزيمة بالعدد والعدة مخرجين من حساباتهم أن الله سبحانه جعل الإنسان هو الأقوى دائما وأمد عباده المؤمنين بالمدد من عنده. إن المدرسة الإسلامية ترى أن الشعب المصرى والجيش المصرى والإنسان المصرى قادر على سحق العدوان والانتصار على اليهود طالما استخدم طاقاته الكامنه الروحية والمادية وأنه فى أى مرة يلتحم هذا الإنسان فى قتال مع العدو فإنه يثبت ذاته وينتصر .

وعلى حين ترى المدرسة الاستعمارية أن حرب ٧٣ كان الانتصار فيها للجندى المصرى لأسباب سياسية دولية وعالمية وتكتيكية أى أنه كان بسبب الظروف الدولية فإننا نرى أن الانتصار كان لأسباب ذاتية محضة دون اغفال أهمية العوامل الأخرى وفى الحقيقة فإن الإنسان المصرى والجندى المصرى لم يهزم قط ولكن الذى هزم هى القيادة السياسية الجبانة أو الخائنة أو المترددة أو الفاسدة ، ففى حرب ١٩٤٨ لم يهزم الجندى المصرى أو العربى ولكن هزم الملوك والرؤساء الذى تخبطوا فى قراراتهم أو خان بعضهم أو أمدوا الجيوش بالأسلحة الفاسدة إلى غيره من الأسباب وقبلوا فى النهاية بالهدنة !! .

وفى حرب ١٩٥٦ لم يسمح للإنسان المصرى بمواجهة إسرائيل فى سيناء بل صدر قرار بالإنسحاب بحجة مواجهة الجيشين الانجليزى والفرنسى فى القناة .

وإذا كان البعض قد وجد الحجة التى يتذرع بها تبريرا للإنسحاب فى عام ١٩٥٦ – فإن وقائع الإنسحاب فى حرب ١٩٦٧ تقطع بوجود خيانة كبيرة فى قمة السلطة وفى أقل الأحوال إهمالا منقطع النظير .

إننا سندرس بشئ من التفصيل وقائع حرب ١٩٦٧ لنؤكد أن الجيش المصرى مظلوم مظلوم مظلوم .

إن هزيمة ١٩٦٧ كانت بسبب الخيانة أو الأهمال فى قمة السلطة – تلك السلطة التى اتسمت بالفساد حتى أخمص قدميها أو تلك التى اتسمت بالجهل أو الخيانة أو الاستبداد .

كانت تلك السلطة قد استطاعت عبر ممارسات طويلة أن تكبل حركة الشعب كله . وأن تصرفه تماما عن المشاركة فى بناء حياته السياسية والاجتماعية . وراحت تردد أن الزعيم ملهم – وأنه لا داعى لأى من الشعب أن يفكر أو يقاتل أو يعمل. ما عليه إلا أن ينتظر لينفذ أوامر الزعيم الملهم ،

وويل كل الويل لمن تسول له نفسه بالتفكير – فالتفكير فى عرف تلك السلطة جريمة كبرى جزاؤها القتل أو السجن أو التعذيب .

كانت تلك السلطة قد مارست أبشع أساليب القهر والتعذيب بحق الإنسان المصرى فى محاولة لاسقاط ثقته بنفسه – والأدهى من ذلك أن تلك القيادة قد ورطت بعض قطاعات الجيش فى المشاركة فى قهر الشعب حتى تحقق الانفصام بين الطرفين . وكان على رأس قيادة الجيش مجموعة المشير عامر المعروفة بفسادها وانحرافها المالى والأخلاق – وهكذا هيأوا الظروف كلها لإلحاق الهزيمة بأمتنا – كانت أمة وراء الأسوار وجيش ذا قيادة منحرفة وبرغم كل هذا كانوا يدركون أن الجيش والشعب بداخله ثقة لا حد لها وخبرة تاريخية هائلة وخافوا إن تركوا هذا الجيش ليقاتل فلربما ينتصر وهكذا أصدروا القرار الخائن بالانسحاب .

* * * *

إننا أمام مجموعة من الحقائق التى اتفق عليها الجميع لندرس ماذا حدث فى ١٩٦٧ .

– صدر قرار من القيادة السياسية « عبد الناصر » بمنع التدريب العسكرى لطلاب المدارس والجامعات !!

– كانت إسرائيل قد حصلت على أعظم كسب لها وهو إنهاء الحصار المصرى عليها فى البحر الأحمر والسماح بمرور الملاحة الإسرائيلية والتجارة الإسرائيلية فى مضايق تيران بمقتضى تسوية فبراير ١٩٥٧ فى أعقاب حرب ١٩٥٦ وهى التسوية التى لم تعرف الجماهير المصرية أو العربية عنها شيئاً .

– فى ١٣ مايو ١٩٦٧ أبلغ وزير الدفاع السورى حافظ الأسد المشير

عبد الحكيم عامر نائب رئيس الجمهورية ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية عن حشود عسكرية إسرائيلية كثيفة على الحدود السورية على جبهتين فى الشمال والجنوب من بحيرة طبرية .

* ومن المعروف الآن فى ضوء الوثائق أن قصة الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا كان مصدرها السوفييت قصة كاذبة – وقد عرفت القيادة المصرية فى الوقت المناسب بذلك – إلا أنها استمرت فى تصعيد الموقف.

– فى ١٥ مايو ١٩٦٧ رفعت حالة الطوارئ فى الأراضى المصرية إلى الدرجة القصوى . وفى نفس اليوم أعلن عبد الناصر أنه أصدر أوامره بارسال القوات المصرية إلى سيناء . وفى أثناء تقدم القوات المصرية فى سيناء يوم ١٦ مايو طلب رئيس الاركان المصرى الفريق محمد فوزى من الجنرال الهندى ريكى سحب القوات الدولية من خط الهدنة على الحدود الشرقية ولكن يوثانت سكرتير الأمم المتحدة فى ذلك الحين أصر على أن أى طلب لإبعاد القوات الدولية من الحدود الدولية يقتضى طلب إخلاء كامل لجميع القوات الدولية من غزه ومن سيناء ، فردت مصر بطلب سحب القوات الدولية كلها يوم ١٨ مايو وفى اليوم التالى وافق يوثانت على الانسحاب وفى يوم ٢٠ مايو تم سحب هذه القوات من جميع مواقعها فى قطاع غزه وسيناء وفى اليوم التالى ٢١ مايو كانت القوات المصرية تحتل مواقعها فى شرم الشيخ – وفى يوم ٢٢ مايو أعلن عبد الناصر قراره بإغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية ، وبذلك أصبحت الحرب أمرا محتوماً .

* إذن فإن كل شئ كان يقود حتما إلى الحرب – فلماذا كان التقصير والاهمال من القيادة السياسية ما دام الجميع يعرف أن الحرب محتومه – وربما يقول قائل أن عبد الناصر لم يكن ينوى الدخولَ فى حرب – وأنه كان يفعل ما يفعل بهد الضغط وتوريط الأطراف وخاصة الاتحاد السوفيتى ليس

إلا - ولكن هل هذا منطق ؟! - وكيف يتلاعب عبد الناصر بمصير أمة وجيش ما دام غير مستعدا للحرب . وإذا كان هذا منطقه فهو منطق مضحك - فمن يدخل إلى منطقة الحرب الحتمية دون استعداد هو خائن لأمته ولاشك - وإن كانت الأمور قد قادته رغم أنفه إلى ذلك فهو أحمق . وفى الحالتين لا ذنب للجيش المصرى فى شئ .

وربما يقول آخر أن السوفييت استدرجوا عبد الناصر وأن قصة الحشود الإسرائيلية على الجبهة السورية لم تكن صحيحة . ولكن من يُستدرج لا يصلح أن يكون زعيما . فضلا عن أن القيادة المصرية كما هو ثابت قد علمت بأن قصة الحشود كانت زائفة فى الوقت المناسب ولكنها اختارت المضى قدما فى التصعيد ومعنى هذا أنها كانت تريد الدخول فى الحرب أو أن الأمر كله كان مجرد لعب غير مسئول بمصير أمة وجيش .

إن الأقرب إلى الفهم أن عبد الناصر كان يعرف أنه غير قادر على الحرب ومع ذلك اختار التصعيد حتى يدمر القوات المسلحة المصرية وذلك فى إطار صراعه على السلطة مع المشير عامر . وكانت الأمة هى الضحية والجيش هو المذبوح على رمال سيناء .

* من الثابت أن رأى العسكريين المصريين استقر على عدم ضرورة إرسال قوات مصرية إلى شرم الشيخ تفاديا لاتخاذ قرار باغلاق خليج العقبة يجعل الحرب بين مصر وإسرائيل محتومة - ولكن عبد الناصر تجاهل هذا القرار وأصدر قرارا بإرسال القوات المصرية إلى شرم الشيخ كما استصدر قرارا من اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى فى جلسة خاصة باغلاق خليج العقبة وتصعيد الموقف وطلب سحب القوات الدولية .

وقد ظهر على أثر ذلك القرار رأى فى القيادة العسكرية المصرية يرى توجيه ضربة جوية لإسرائيل لانتزاع السيطرة منها ولكن عبد الناصر عارض هذا

الرأى على أساس أنه يعرض مصر لمواجهة مع الولايات المتحدة وفى الوقت نفسه طلب إلى القيادة العسكرية الاستعداد لتلقى ضربة جو إسرائيلية ، وكان عبد الناصر يعلم علم اليقين أن إسرائيل تستعد للهجوم وأن احتمالات الحرب تتصاعد من ٥٠٪ عند بحث موضوع غلق خليج العقبة يوم ٢٢ مايو إلى ٨٠٪ عند اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى إلى ١٠٠٪ عندما أعلن عبد الناصر قراره باغلاق خليج العقبة .

– وفقا لرواية صالح مرسى – فإن شبكة مصرية تعمل داخل إسرائيل كانت قد استطاعت أن تحصل على الخطة الإسرائيلية لحرب ١٩٦٧ كاملة وخاصة عملية ضرب المطارات – وأن تلك الخطة قد وصلت إلى الرئيس عبد الناصر – إلا أنها لم يلتفت إليها وأهملت . ومعنى هذا أن الاهمال كان قد وصل إلى مستوى غير مقبول أو أن هناك خيانة متعمدة من جانب عبد الناصر .

* إن وضع تلك الحقائق جنبا إلى جنب يوضح وبما لا يدع مجالا للشك أن عبد الناصر اختار التصعيد واختار الحرب مخالفا رأى القيادة العسكرية وأنه رفض توجيه الضربة الأولى – واختار أن نتلقى نحن تلك الضربة وأهمل عن عمد أو باهمال تقرير الشبكة المصرية عن الخطة الإسرائيلية ومعنى هذا كله ببساطة أنه وفقا للظروف الموضوعية أنه اختار أن يتم تدمير الجيش المصرى والحاق الهزيمة به – وقد يكون التفسير أن ذلك تم فى إطار رغبة عبد الناصر فى إزاحة المشير عامر الذى أمسك بتلابيب الجيش المصرى . حيث إن الهزيمة سوف تؤدى حتما إلى نهاية المشير عامر – وقد يقول رأى آخر أن عبد الناصر فعل ذلك عن عمد لأنه كان ضالعا فى الخيانة والعمالة للامريكان – راجع جلال كشك – ثورة يوليو الأمريكية » . وأيا كان التفسير فإن حجم الكارثة التى لحقت بأمتنا كان مروعا والمسئولية تقع على عاتق عبد الناصر والمشير معاً ولا ذنب للجيش المصرى فى شئ .

– على الرغم من علم القيادة السياسية والعسكرية بنية إسرائيل فى توجيه ضربة جوية وشيكة – إلا أن الضربة الجوية الإسرائيلية وقعت بينما كانت هيئة القيادة العامة فى الجو فى الطريق إلى أحد المطارات الحربية مما أدى إلى عدم اعتراض وسائل الدفاع الجوى المصرى للطائرات الإسرائيلية بفاعلية مما أدى إلى تدمير ٨٥ – ٩٥٪ من الطائرات المصرية المقاتلة والقاذفة على الأرض فضلا عن تخريب معظم المطارات المصرية !! .

* وهذا يؤكد أن قوات الدفاع الجوى لم تكن مقصرة – فقد شلت يدها عن العمل بسبب وجود هيئة القيادة العامة فى الجو – الأمر الذى يبرئ ساحة الجيش ويؤكد وجود خيانة أو إهمال فى قمة السلطة . فكيف تكون طائرة هيئة القيادة العامة فى الجو فى وقت يعرف فيه الجميع أن إسرائيل على وشك توجيه ضربة جوية !! .

– فى مساء ٦ يونيو ١٩٦٧ صدر قرار بالانسحاب من كامل سيناء فى حين أن الأمور لم تكن تدعو إلى اليأس فى أعقاب الضربة الجوية الإسرائيلية لأن الطيارين المصرين لم تكن قد نزلت بهم خسارة تذكر ، وكان يمكن تدبير الطائرات من الدول الصديقة – كما أن أوضاع القوات البرية فى سيناء لم تكن تبرر قرار الانسحاب – وقد أدى التخبط فى القرارات إلى كارثة مروعة حيث أصبحت القوات المصرية صيدا سهلا للطيران الصهيونى حتى بلغت الخسائر نحو ٩٠٪ من الأسلحة والمعدات ، وكان قرار الانسحاب قد اتخذ بين المشير عامر والرئيس عبد الناصر دون الرجوع إلى رأى هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية .

وهكذا فإن ملابسات حرب ١٩٦٧ تؤكد أنه لم يكن للمقاتل المصرى ذنب فيما حدث ولم يكن الجيش المصرى إلا ضحية عبد الناصر وعامر .

* * * *

أى أسى يشعر به المرء تجاه ما حدث فى ١٩٦٧ ، وكيف مارس جنود اليهود إذلا لا يحق جيشنا وأمتنا لم يكن لهما يد فيه . إن الإنسان يشعر بقدر هائل من المرارة تجاه هؤلاء الذين تاهوا فى سيناء أو هؤلاء الذين أصبحوا طعاما للنابالم أو هؤلاء الذين تورمت أقدامهم من المشى وهم يصلون إلى مشارف القناة أو مدن محافظة الشرقية وما حولها وملايين المهجرين من سكان منطقة القناة الذين اتخذوا العراء مأوى لهم نتيجة أخطاء عبد الناصر وعامر أو خيانتهما أو خيانة أحدهما .

حجـــم الإنجـــاز

لن نستطيع أن نفهم حجم الإنجاز الذى قام به الجيش المصرى فى حرب رمضان ما لم نضع فى اعتبارنا حجم تسليح الطرفين – والتحصينات الهائلة التى استطاع الجندى المصرى أن يتغلب عليها .

عقب حرب ١٩٦٧ المشئومة والتى عرفنا أن الجيش المصرى والإنسان المصرى لم يكن لهما ذنب فيما حدث فيها انطلقت أبواق الاستعمار فى الخارج والداخل تحاول استئصال ثقة الإنسان المصرى فى نفسه وتحاول إيهامه بأنه إنسان متخلف وغير عصرى ولا يصلح للقتال ؛ كانت الحملة من القوة والشراسة والخبث بحيث أن خطرها كان محدقا – ولكن الإنسان المصرى كان يستلهم وجدانه ويصبر ويتماسك .

إن أول أهداف الاستعمار دائما كانت الإنسان ، كانت المخططات الاستعمارية التى نفذتها أبواق الاستعمار تعمل منذ فترة طويلة وبالتحديد منذ الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ – حينما اكتشف المستعمر أن هناك مصادر للقوة بين أمتنا ستظل عائقا أمام تحقيق أهداف الاستعمار – كان عنصر الإيمان والثقة بالله تعالى والتمسك بقيادة العلماء المجاهدين واستلهام روح الإسلام وخاصة الصدر الأول منه من العوامل الهامة التى تحطمت عليها الحملة الفرنسية وبعدها حملة فريزر ١٨٠٧ م – ومن يومها والاستعمار وتلامذته من أبناء المدرسة الاستعمارية يعملون ليل نهار وفق مخطط محدد لفصم ذلك الإنسان عن نفسه وعن دينه وعن وجدانه وكذلك عزله باستمرار عن طريق

الحكم الشمولى والديكتاتورى ، ثم الترويج لعدم صلاحية هذا الإنسان .
وكانت حرب ١٩٦٧ فرصة هائلة ومادة خصبة لتلك المدرسة الاستعمارية .
كان الإنسان المصرى قد عانى كثيرا من العزلة والتعذيب والإذلال على يد نظام عبد الناصر وها هو يتعرض عقب الحرب إلى عملية نفسية معقدة تستهدف إسقاط ثقة هذا الإنسان بنفسه نهائيا .

كان الإعلام الإسرائيلى والغربى وبعض المرتزقة من العرب والمصريين يساهمون فى هذا الأمر بلا تقاعس . ولم يتجرأ أحد على وضع التصور الصحيح لحرب ١٩٦٧ وملابساتها وفضح ما حدث فيها . وبدلا من الاعتراف بالاهمال أو الخيانة فى قمة السلطة وتحميل القيادة السياسية نتائج أعمالها وبالتالى تبرئة ساحة رجال الجيش – راح ذلك الاعلام يقدم صورة عكسية على طول الخط .

كانت الصورة التى رسمها الغرب والاعلام الموالى له كالتالى : – إسرائيل دولة عظمى – إسرائيل لا تهزم – الجيش الإسرائيلى لا يقهر – العرب غير قادرين على الحرب – الجندى المصرى لا يصلح للقتال – لن نستطيع العبور إلا بقنبلة ذرية ، سيتم تدمير الجيش المصرى بكامله إذا حاول العبور .

• الجنرال موشى ديان – وزير الحرب المنتصر فى ١٩٦٧ يقول أمام مؤتمر عقد فى إسرائيل فى يونية ٧٣ « طالما أن لنا جنودا إسرائيليين ، وأن قناة السويس هى حدودنا العسكرية ، وأن العرب هم أعداؤنا فإن كل شئ على ما يرام » .

• الجنرال إريل شارون – ٢٠ يوليو ١٩٧٣ – على صفحات جريدة معاريف الإسرائيلية « إن إسرائيل الآن قوة عسكرية عظمى – فأى دولة أوروبية أضعف منها عسكريا » ، وأضاف ذلك الجنرال « أننى أرى أنه ليس هناك أى هدف عسكرى أو مدنى من الخرطوم حتى بغداد والجزائر بما فى ذلك ليبيا – إلا ويستطيع جيش الدفاع الإسرائيلى غزوه فى أسبوع واحد » .

* سأل أحد الصحفيين جنرالا إسرائيليا « ماذا يحدث لو حاول المصريون عبور القناة – فقهقه الجنرال وأخذ يدق بيده على فخذيه ثم قال : « أننى بمفردى وبمدفع هاون عيار ٨١ استطيع أن أوقف عبورهم .

وعلى الجانب الغربى والعالمى – أصدر وزير المالية الهولندى أمرا إلى دار سك النقود بأن تبادر بسك ميداليات ذهبية وفضية وبرونزية تكون صورة موشى ديان « بالرباط على عينه اليسرى » فوق وجهها الأول وتكون النجمة السداسية نجمة صهيون على وجهها الثانى .

ولقد صدرت هذه الميداليات بالفعل وسرعان ما تحولت إلى موضة انتقلت من هولندا إلى أوروبا الغربية .

وفى سلسلة من التحقيقات التى نشرتها صحيفة الديلى تلجراف عن جيش إسرائيل الأسطورى قال المحرر العسكرى للصحيفة « إن حرب الأيام الستة ... يجب أن تكون البوصلة الهادية لكل العسكريين الغربيين وغير الغربيين ... وكل المسئولين فى الأكاديميات العسكرية فى العالم » .

لم تقتصر تلك الحملة على الإعلام الإسرائيلى ولا الإعلام الغربى بل هناك فى مصر ذاتها والعالم العربى من تلاميذ المدرسة الاستعمارية من راح يردد هذا الكلام وأكثر منه وسوف نكتفى بتلك المقالة الشهيرة التى كتبها الصحفى المعروف محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام وقتها تحت عنوان « تحية إلى الرجال » قال فيها أن العبور مستحيل – وأن جيش إسرائيل لا يقهر – وأن العبور سوف يكون مذبحة حقيقية للجيش المصرى وأسهب فيها فى وصف قوة العدو .

* * *

وعلى الجانب الآخر – كانت الحركة الإسلامية – وعلماء الدين الشرفاء يتصدون تحت السطح وفى عمق المجتمع المصرى لتلك الحملة وكانوا دائما يرددون أن الإنسان المسلم بخير وأنه قادر على تحقيق النصر – وأن زوال إسرائيل هى حتمية قرآنية – وكانوا يوزعون كتيبات تحتوى على الآيات والأحاديث التى تؤكد فناء إسرائيل وأنها إلى زوال – وأن الجندى الصهيونى جندى جبان لا يقاتل إلا من وراء ستر . وكان هؤلاء المجاهدون يعملون تحت السطح برغم مطاردات البوليس لهم وبرغم غياب الكثير من الرجال فى السجون والمعتقلات ، وكانوا يؤكدون دائما أن ما حدث فى ١٩٦٧ لم يكن إلا بسبب الخيانة والاهمال فى قمة السلطة وأن الجيش المصرى مظلوم وأنه إذا قدر له الاشتباك فى قتال حقيقى مع العدو فإن قدراته وكفاءته سوف يشهد لهما العالم – كما كانوا يؤكدون أن الإنسان المؤمن أقوى من كل الأسلحة وأن الحسابات العسكرية لا تكون بالمعدات ولكن بالإرادة والإيمان والتصميم والعزم .

* * * *

كان من ضمن الحملة الإعلامية التى شنتها القوى الاستعمارية على أمتنا أن هناك تفوقا عسكريا إسرائيليا هائلا – ورتبت تلك القوى على هذه المقدمة نتيجة تقول أنه ما دام هناك تفوقا عسكريا إسرائيليا هائلا – فإنه لا أمل فى القتال أو التحرير أو النصر – خاصة وأن ذلك التفوق مرشح للاتساع وليس العكس .

أما المدرسة الإسلامية – فكانت تقول نعم هناك تفوق عسكرى إسرائيلى هائل بل وخطير وهو مرشح للاتساع – ولكن لدينا سلاحا فتاكا وهو الإنسان المؤمن – صاحب الإرادة والعزيمة والتصميم – وأن الإنسان المؤمن أقوى من كل الأسلحة – التقليدية والذرية والإليكترونية – وأن المقاتل

المصرى قادر بأدوات بسيطة ومتاحة على تحقيق النصر مهما كانت قوة أسلحة العدو ومعداته .

ولاشك أن انتصار رمضان برغم ذلك التفوق الرهيب فى السلاح الإسرائيلى يؤكد نظرية المدرسة الإسلامية – ويؤكد أن حجم الإنجاز الذى حققه المقاتل المصرى كان هائلا .

والآن لنحاول أن نقترب من الصورة – لنرى كم كانت المهمة صعبة بل وشبه مستحيلة وذلك بالاستناد إلى الحسابات العادية – ولنرى كم كان سلاح الإيمان والإرادة فعالا إلى أى مدى حيث حول تلك المهمة المستحيلة إلى مهمة ممكنة بل وحقيقية .

– فى سبتمبر من عام ١٩٧٣ قال الخبير العالمى « هو لبروك » فى مجلة السياسية الخارجية الأمريكية التى يعمل أيضا رئيسا لتحريرها :

« إن إسرائيل لم يسبق لها طوال تاريخها أن كانت آمنة بمثل هذا القدر ولا متفوقة من وجهة النظر العسكرية بمثل هذا التفوق – وبعد إنقضاء ست سنوات على حرب الأيام الستة فإن نشوب حرب صريحة بين إسرائيل وجيرانها العرب يبدو أقل احتمالا مما كانت عليه فى أى وقت من الأوقات » .

– فى شهر أغسطس ١٩٧٣ صدر التحليل الأخير للميزان العسكرى عام ١٩٧٣ – ١٩٧٤ عن المعهد الدولى للدراسات الإستراتيجية بلندن وقد جاء فى هذا التحليل أن التفوق الجوى الإسرائيلى قد تدعم بدرجة كبيرة وأنه من دواعى فخر إسرائيل أن لديها أفضل الطيارين فى العالم » .

– فى ابريل ١٩٧٣ زار كبير الخبراء السوفييت الجنرال « لاشنكوف » مصر وفى معرض تعليقه على استحالة العبور – من وجهة نظره طبعا – قال الجنرال لاشنكوف للواء سعد مأمون « أنكم تفكرون فى الحرب بأساليب

عام ١٩١٤ قبل أن تخترع الدبابات » وأضاف « وهل تتصور ياجنرال أن المقاتل الفرد فى الحرب الحديثة يستطيع أن يتصدى لدبابة ؟ إن دبابات إسرائيل أمامكم ولن تستطيعون مقاومتها » .

– وقال جنرال سوفيتى آخر للمشير أحمد إسماعيل قبل الحرب بشهور مشيرا إلى الساتر الترابى المرتفع « إنكم تحتاجون إلى قنبلة ذرية لكى تتغلبوا على هذه المشكلة !! » .

والآن لنصل إلى العقبات والتحديات والتحصينات التى كان على المقاتل المصرى أن يتغلب عليها .

أخطر مانع مائى فى التاريخ :

عرف التاريخ العسكرى كيف أضطرت بعض الجيوش إلى عبور موانع مائية ولكن هذا التاريخ العسكرى لم يعرف مانعاً يصل فى خطورته إلى ما وصلت إليه قناة السويس للأسباب الآتية :

– أن جوانب القناة لا تنحدر بشكل تدريجى كما هو معروف بالنسبة للأنهار والقنوات العادية – وإنما تقف جوانبها بشكل رأسى تقريبا وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد – بل إن هذه الجوانب أو الشواطىء مكسوة بالدبش والأسمنت علاوة على ألواح وشرائح الصلب على جانبى القاع لتقويتها ولتحول دون إنهيار الجانبين وهى بهذا الشكل تمنع نزول وصعود المركبات البرمائية إلا بعد تجهيزات هندسية مسبقة تتطلب أعمالا خاصة .

– على حافتى القناة ينهض ساتران ترابيان هائلان يصل إرتفاعهما إلى ٢٠ مترا – الساتر الذى أقامته القوات المصرية على الضفة الغربية والذى يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه قبل عبور القناة ، ثم الساتر الذى أقامه

الإسرائيليون على الضفة الشرقية « والذى يتحتم فتح ثغرات واسعة فيه بعد عبور القناة » .

– عرض القناة الذى يتراوح بين ١٨٠ ، ٢٢٠ مترا لا يسمح للقوات بالمناورة والانتشار أثناء العبور بل إنه يتسبب فى الإزدحام والكثافة مما يجعل القوات هدفا سهلا لضربات العدو .

– لايوجد فى القناة مكان ضحل أو مخاضة كما يقول العسكريون ، وأهمية هذه المخاضة تتمثل فى احتمال أن يضطر المقاتلون إلى الخوض فى المياه على أقدامهم وهم يحملون أسلحتهم ومعداتهم ليس هذا فقط بل إنها تعتبر من أعمق الموانع المائية إذ يصل عمقها إلى ١٨ مترا ، كما أن سطح الماء ينخفض عن مستوى حافة الشواطىء بحوالى ٤ أمتار الأمر الذى يحتم تكسير وتسوية حافة الشاطئين لكى يتيسر رسو وسائل العبور المختلفة .

– التيار المائى فى قناة السويس متغير السرعة من مكان لآخر بل من ساعة إلى أخرى وهذا يشكل مشكلة كبيرة بالنسبة لتثبيت رؤوس كبارى العبور .

نظرا لأن القناة تصل بين البحر الأبيض والبحر الأحمر فإن المد والجزر فيها يمثلان مشكلة إخرى إذ يتغير مستوى مياه القناة ٤ مرات خلال اليوم الواحد ويبلغ فارق المنسوب بين أعلى مد وأدنى جذر حوالى ٦٠ سم فى الشمال ويتزايد إلى مترين قرب السويس .

الساتر الترابى :

– أقام الأسرائيليون ساترا ترابيا عملاق على طول الضفة الشرقية للقناة وظلوا يزيدون فى إرتفاعه حتى وصل إلى ٢٠ مترا .

– قام الأسرائيليون بزراعة جوانبه بحقول من الألغام بالغة الكثافة .

– أنشئ فوق قمته المترامية الأطراف مرابض للدبابات والعربات المدرعة الإسرائيلية بفاصل يتراوح بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ متر ومعنى ذلك أن كل كيلو متر واحد يشمل ٨ مرابض ولو قمنا بعملية حسابية بسيطة لوجدنا أن خط المواجهة الذى يصل إلى ١٧٠ كيلومترا يحتوى على ١٣٦٠ مربضا للدبابات والمدرعات ولنا أن نتصور كمية النيران التى تنهال من هذه المرابض على القوات التى تستعد للعبور -- كما أن هذه المرابض تم إعدادها بحيث تقوم بإنتاج نيران جانبية مؤثرة توجه إلى القوات أثناء العبور .

– حتى لو جردنا هذا الساتر الترابى من كل هذه التجهيزات الكفيلة بوأد عملية العبور فى مهدها ، فإن مجرد تسلقه بارتفاعه الحاد يمثل مشكلة كبيرة أمام الأفراد المشاة الذى يحملون على ظهورهم معدات ثقيلة جدا فكيف يكون الحال إذا كان عليهم أن يتسلقوه وسط جحيم النيران الذى يتربص بهم .

– وإذا نجح المشاة فى عبور الساتر – فكيف يمكن للمدرعات أن تعبره بأسرع مايمكن – خاصة أن القوات المصرية لا تملك قنبلة ذرية ولا عصا سحرية

– أنشأ الإسرائيليون عددا آخر من السواتر الترابية على عمق يتراوح بين واحد وثلاثة كيلومترات من الشاطئ الشرقى للقناة بنظام خاص ، وهذه السواتر تستخدم كخطوط ومرابض نيران إضافية للدبابات وهى تلعب دوراً مؤثرا فى تحقيق عنصر الدفاع المتحرك وهو تكبيد القوات المهاجمة أكبر خسائر ممكنة .

– سلاح إسرائيل السرى :

أعدت القوات اليهودية أجهزة لضخ مواد ملتهبة على الشاطئ الشرقى للقناة وقد صممت هذه الأجهزة بحيث تكون قادرة على أن تضخ وتدفع على سطح

المياه بطول إمتداد القناة مزيجا من النابالم والزيوت المشتعلة وكميات من الكيروسين لتكوين طبقة من النيران فوق سطح المياه وبذلك تتحول القناة نفسها إلى حاجز من اللهب يستحيل إختراقه وكانت هذه الأجهزة الرهيبة تتكون من عدد من المستودعات الضخمة المعبأة بالخليط سريع الالتهاب ، ولها صمامات تتحكم فيها طلمبات ضخ ماصة كابسة ويخرج منها خط من الأنابيب بقطر ٦ بوصات وتنتهى بفتحات تحت الماء على مسافات متقاربة وبشكل أكثر تركيزا فى جميع الأماكن الصالحة للعبور ، وكان كل مستودع قادرا على ضخ ٢٠٠ طن من هذه المواد الملتهبة وكانت جميع المستودعات مدفونة تحت سطح الأرض حتى يستحيل ضربها بالمدفعية - وحينما تمكنت القوات المسلحة المصرية من الحصول على عينة من هذه المواد الملتهبة تمت تجربتها بنفس النسب على مياه النيل وعندما قيست درجة حرارة المياه فى السطح بعد اشتعالها أتضح أنها وصلت إلى ما يقرب من ٧٠٠ درجة مئوية - أى أنها كانت من القوة والبشاعة بحيث تحول القناة إلى قطعة من جهنم حتى أنها تشوى الأسماك مهما هربت إلى القاع وتلفح حرارتها أى شخص يبعد عنها بمسافة ٢٠٠ متر .

خط بارليف :

أنشأ اليهود على طول ضفة القناة الشرقية سلسلة من النقاط الحصينة « خط بارليف » وذلك لتكون مانعا آخر فى وجه عبور القوات المصرية .

يقول موشى ديان عن هذا الخط « إن عمليات العبور المصرية إذا حدثت لن تؤثر على قبضة إسرائيل الحازمة المتمثلة فى خط بارليف المنيع - وسوف يتلقى المصريون الرد الحاسم لأن التحصينات الإسرائيلية فى خط بارليف أكثر قوة وتنظيما ويمكن القول أنه خط منيع يستحيل اختراقه ، إننا أقوياء بدرجة تكفى

للاحتفاظ إلى الأبد بخط بارليف الذى أنفقنا على إنشاء تحصيناته مبالغ طائلة » .

وقد استفادت إسرائيل من تجارب خطوط الدفاع السابقة وأضافت إليها .. حتى كان خط بارليف عملاقا بالمقارنة بتلك الخطوط . وقد ظلت العقلية الإسرائيلية العسكرية تضيف إلى هذا الخط تحصينات أخرى عاما بعد عام حتى أصبح من وجهة النظر العسكرية خطا منيعا يستحيل إختراقه – فلكل دشمة من هذا الخط تجهيزات تجعلها قلعة مستقلة يمكن أن تصمد بمفردها وتعطى كمية هائلة من النيران – كما أنها لا تتأثر بطلقات المدفعية أو قصف الطائرات كما أنها مصممة بحيث تكون صالحة لاستخدام كافة أنواع الأسلحة وكان الهدف من هذا الخط هو ترسيخ الوجود العسكرى اليهودى فى سيناء ووقاية الجنود الصهاينة ضد التأثير النيرانى للمدفعية والطائرات المصرية مع تحقيق القدرة على الصمود ضد أى هجوم برى من أى اتجاه – وفى الوقت نفسه تتيح تجهيزات الحصون إمكانية توجيه ضربات تدميرية للقوات المصرية لاجهاض أى محاولة أو حتى فكرة للعبور ، وإعطاء إنذار مبكر ببدء العمليات من جانب القوات المصرية ، وإعطاء معلومات دقيقة بوسائل الاستطلاع الموجودة فى المواقع الحصينة والمستفيدة من ارتفاع الساتر الترابى عن عمليات الإعداد وعمليات إقتحام القناة وخاصة فى المراحل الأولى ، والسيطرة على المناطق الصالحة للعبور والطرق الطويلة التى تؤدى إلى عمق سيناء ، وإدارة نيران المدفعية وتوجيه الطيران الإسرائيلى .

– يقول توماس تشينهام مراسل وكالة اليونايتدبرس عن هذا الخط « إن الجيش المصرى – على الرغم من آلاف القصفات من المدفعية الثقيلة والهاونات والصواريخ ، قد يفشل فى تدمير حصن واحد من حصون خط بارليف » .

الذراع الصهيونية .. الطويلة

كان سلاح الطيران الصهيونى يمثل ولاشك عقبة ضخمة وتحديا هائلا أمام الجندى والجيش المصرى . فما لا شك فيه أن الطيران الصهيونى كان متفوقا من جيث العدد والنوع بطريقة كبيرة جدا . كما أن ذلك السلاح كان يمتلك التجهيزات والمعدات الاليكترونية المعقدة والحديثة وأجهزة الرادار وكذلك يمتلك الطائرات ذات المدى البعيد – أضف إلى ذلك أن القواعد الجوية الإسرائيلية كانت بعيدة عن مدى الطائرات المصرية بعد احتلال سيناء فى حرب ١٩٦٧ وقد أكد معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن فى تقرير عام ١٩٧٣ التفوق الجوى الإسرائيلى ، ولعل ما يوضح هذه الصورة قول هنرى كيسينجر بعد يوم واحد من حرب رمضان عندما التقى بالدكتور محمد حسن الزيات « ماذا نستطيع أن نفعل من أجلكم ؟ إن الطيران الإسرائيلى سوف يمزقكم إربا إربا فى غضون الأربع والعشرين ساعة الأولى من الحرب » .

المدرعات الإسرائيلية :

تقول مجلة « أرمور » العسكرية الأمريكية فى عام ١٩٧٣ « إن سلاح المدرعات الإسرائيلى من أقوى أسلحة المدرعات فى العالم » وفى تحليل نفس المجلة لأرقام الدبابات والمدرعات والعربات والألوية الميكانيكية التى يتكون منها سلاح المدرعات الإسرائيلى وصلت المجلة فى النهاية إلى القول بأن ٧٨٪ من المدرعات الإسرائيلية متفوقة من حيث العدد والنوع والقدرة على الحركة والتسليح على الدبابات العربية .

* * * *

إذن فقد كان حجم التحديات هائلا وكانت المصاعب والتحصينات كثيرة كان هناك تفوق جوى إسرائيلى هائل – والقتال تحت وطأة هذا التفوق الجوى مخاطرة كبيرة – وكانت أجهزة الحرب الإليكترونية المعقدة موجودة بوفرة لدى الإسرائيليين – كما كانت أقمار التجسس الأمريكية تزود الإسرائيليين بالمعلومات أولا بأول ، وكان هناك تفوق فى المدرعات وكان هناك أخطر مانع مائى فى التاريخ « قناة السويس » ، وكان هناك الساتر الترابى . ثم خط بارليف وما أدراك ما خط بارليف – ثم أنابيب النابالم والمواد الملتهبة ، كان كل هذا موجودا وعلى الجانب الآخر كان السلاح متواضعا – والميزان العسكرى من حيث التسليح مختلا لصالح العدو – ولكن كان هناك إنسان – إنسان مؤمن بربه ودينه ووطنه إنسان استطاع أن يقهر المستحيل – وأن يتخطى تلك العقبات والتحصينات وأن ينزل بالعدو هزيمة قاسية . إنسان استطاع أن يتجاوز التفوق فى السلاح بسلاح الإيمان – واستطاع بالإرادة أن يعبر أخطر مانع مائى وأن يفتح الثغرات فى الساتر الترابى وأن يعطل خراطيم النابالم والمواد الملتهبة – بل وأن يزيل خط بارليف الرهيب .

إننا إذا قارنا بين حرب ١٩٦٧ . وبين حرب رمضان – نجد أن ميزان القوى العسكرى من حيث التسليح بين الطرفين فى الأولى متوازنا وفى الثانية مختلا – ومع ذلك فإن النتائج كانت عكس ما تقوله موازين القوى – ما هو المتغير الذى حدث والذى أدى إلى هذا؟ أولى المتغيرات أن الجيش المصرى لم يُسمح له بالقتال فى الأولى ولكن هذا الجيش ذاته قاتل فى الثانية – وهكذا فإن الأصل فى هذا الجيش وذاك الإنسان أنه قادر على القتال والنصر رغم أحلك الظروف فإن العيب لم يكن فيه أبدا – ولكن كان فى القيادة السياسية الغارقة فى الإهمال أو الخيانة والتى تفرض عليه فى كل مرة الانسحاب قبل القتال – ولكن عندما قاتل هذا الجيش انتصر . وهكذا فإن حرب رمضان هى الأصل وغيرها هو الاستثناء – وهى وحدها الصالحة لتقييم أداء الرجال فى المعارك .

قبل حرب ١٩٦٧ - كان الإنسان المصرى ممزقا بفعل عوامل القهر والتعذيب والانفصام النفسى الذى حاولوا إحداثه به عن طريق عزله عن دينه وعن ربه وتلقينه مبادئ ما أنزل الله بها من سلطان- وقبل حرب رمضان - كانت الحركة الإسلامية وعلماء الدين المجاهدين برغم السجن والتشريد تعمل بنشاط لإعادة ثقة الإنسان فى نفسه وتحليل الأسباب الحقيقية للهزيمة فى ١٩٦٧ والتركيز على قضايا الجهاد والقتال وسير الغزوات والمعارك التى خاضها الرسول والصحابة فى الصدر الأول من الإسلام وكذلك أخبار الانتصارات والمعارك الكبرى ضد الصليبيين والتتار - كان هذا كله يحدث رغم أنف النظام أو تحت السطح- بل إن النظام أضطر إلى السكوت على قيام الجنود بتشييد المساجد فى وحداتهم العسكرية وإقامة الصلاة الجامعة بها وتدارس آيات الجهاد والقتال فى الوحدات العسكرية . وكانت النتيجة الحتمية لكل هذا أن أصبح هناك جامعاً وجدانيا كبيرا يجمع بين المقاتلين . الذين أنطلقت صيحتهم بدون ترتيب فى وقت واحد فى كل مكان « الله أكبر » لتهز صروح الطغيان ولتتجاوب مع إرادة الله فى النصر ولتحقق أعظم حافز معنوى فى التاريخ وكان من الطبيعى أن يقهر الجنود المؤمنون الحاجز المائى والساتر الترابى وتحصينات خط بارليف -- وأن ينتصروا رغم التفوق الجوى الإسرائيلى وكفاءة المدرعات اليهودية . كان الإنسان متسقا مع نفسه ومع وجدانه فلما قاتل انتصر .

ولكى ندرك حجم الإنجاز الهائل الذى تم لنقرأ معاً ماذا حقق الجنود المؤمنون الصائمون ذوى الجوارح المتوضئة . وسنقدم شهادات من العدو نفسه .

فى مجلة « لانوفيل أوبزفاتور » الفرنسية كتب فيكتور سيجلمان وهو كاتب يهودى مقالا بعنوان « نهاية دولة إسرائيل الكبرى » قال فيه « لقد اختفت تماما أغانى الانتصار التى كانت ترددها إذاعة إسرائيل بعد حرب ٦٧ - وحل محلها الآن أغان تقول كلماتها « باسم الجنود الذين احترقوا فى دباباتهم

باسم الطيارين الذين هبطوا والنيران مشتعلة فى أجسادهم
باسم وباسم وباسم » .

وتقول جولدا مائير « لا شئ أقسى على نفسى من كتابة ما حدث فى ١٩٧٣ فلم يكن حدثا عسكريا رهيبا فقط – وإنما كان مأساة عاشت وسوف تعيش معى حتى الموت » . وتضيف « إن صدمتنا لم تكن فقط فى الطريقة التى حاربونا بها ولكن لأن عددا من المعتقدات الأساسية التى آمنا بها قد أنهارت – كانت أخبارا مروعة من الجبهة تأتينا دائما » .

– فى اليوم الرابع للقتال ٩ أكتوبر ١٩٧٣ صرح موشى ديان للصحف « لن أخفى عليكم أن قواتنا فى الجولان وفى قناة السويس فى حالة ذعر تام – ولم يعد لخط بارليف وجود ، كما أن أجهزة إشعال مياه القناة صارت خرافة ، وأصارحكم بأننى لا أتمنى أن أكون فى هذه اللحظات فى موقف رجال مدرعاتنا ... أما سلاحنا الجوى فقد تم تحييده وقد بلغت خسائرنا فيه فى اليوم الأول فقط – ستين طائرة منها ٣٦ طائرة فانتوم » .

حقا لقد كان حجم الإنجاز الذى حققه الرجال بوسائلهم البسيطة هائلا .

« المشاة المصريون مفاجأة رهيبة لنا – كل التقارير تقول بأن ضرباتهم لمدرعاتنا وحصوننا بالغة الدقة والجسارة – لقد أتضح أن ذراع هؤلاء المشاة المصريين أطول من مدافع دباباتنا – بل إن بعضهم كان يلقى بنفسه فوق الدبابات ليفجرها » .

من أوراق « دافيد اليعازر »
رئيس الإركان الإسرائيلى فى حرب رمضان

ولكن ما حدث – كيف حدث – كيف استطاع الإنسان المسلم أن يحقق ذلك الإنجاز . وإذا كانت كل الحسابات العلمية والعملية تقول فى ذلك الوقت أن العبور مستحيل – فلماذا نجح العبور؟ إننا أمام مدرستين فى التفكير – المدرسة الاستعمارية – التى تحسبها بالكمبيوتر وتحاول أن تلقى فى روعنا أن الآلة والكمبيوتر والطائرة والدبابة والصاروخ هى العوامل الحاسمة – وهناك المدرسة الإسلامية التى لا تقلل أهمية الآلة والكمبيوتر والطائرة والصاروخ وغيرها – ولكن تقول أن الإنسان ذاته أقوى من كل هذه الأشياء وقادر على تجاوزها – وخاصة إذا استمد هذا الإنسان قوته من الله تعالى – القادر على كل شيء . والذى وعد جنده بالنصر . كانت مفاهيم تلك المدرسة تنتشر بين الرجال فى كل موقع برضا النظام أو رغم أنفه – فوق السطح وتحت السطح وقد تجسدت تلك المفاهيم فى تلك الصيحة الهائلة التى أطلقها الجنود فى وقت واحد فى كل جبهات القتال فى العاشر من رمضان – تلك الصيحة التى روعت جنود الاحتلال وجعلتهم يفقدون صوابهم ويتحولون إلى قطعان من الماشية تنتظر الذبح ، تلك الصيحة التى خلقت من الجنود فى كل موقع كتلة واحدة متماسكة تستمد قوتها من الله تعالى القاهر فوق كل قوة والقادر فوق كل متكبر .

إن تتبع يوميات معركة رمضان يؤكد صحة النظرية الإسلامية التى ترى أن الإنسان أقوى من كل الآلات والأسلحة والحاسبات الآلية طالما كان يستخدم ما هو متاح لديه من طاقات وطالما كان يبذل كل ما فى وسعه من جهد .

فعلى مستوى التدريب – بذل الرجال كل ما فى وسعهم فى هذا التدريب – وعلى مستوى التفكير فكر الرجال فى كل صغيرة وكبيرة ودرسوا كل الاحتمالات وعلى مستوى التمويه نجح الرجال فى إخفاء معالم تحركهم وفاجأوا العدو به وهكذا اكدوا أن الإنسان المصرى قادر على خداع اليهود أساتذة المكر والخداع .

كان الخبراء السوفييت قد خرجوا من مصر عام ١٩٧٢ – حاملين معهم أسلحتهم وأجهزتهم – ولعل هذا يؤكد أن العمل كان مصريا صحيحا فلم يشارك فيه الخبراء السوفييت ولا أجهزتهم – الأمر الذى يؤكد أصالة وشجاعة وتفوق الجندى المصرى ، كانت الإمكانيات محدودة للغاية بعد أن تباطأ السوفييت فى إعطاء مصر حاجتها من السلاح واعتمد الرجال على الوسائل المصرية المتاحة لتحقيق العبور وإقتحام الصعاب .

ففى مرحلة الإعداد والتحضير – قام الجيش المصرى بالعديد من تجارب العبور على موانع مائية تشبه قناة السويس إلى حد كبير جدا ، وقام سلاح المهندسين المصرى باعداد وتوفير معدات ومهات العبور فتم تصنيع ٦٠٪ من الكبارى محليا ، وتمت صناعة ٧٥٪ من قوارب الاقتحام التى وصل عددها إلى ٢٥٠٠ قارب وتم التدريب الشاق على إقامة الكبارى فى أسرع وقت – برغم بدائيتها وعلى استخدام القوارب بشكل منظم جدا .

– قام العلماء من رجال القوات المسلحة المصرية بدراسة بالغة الدقة لكل ما يتعلق بالقناة كمانع مائى – كما تم تحديد أصلح الأماكن لإقامة المعابر واختيار أنسب الأوقات باليوم والساعة كما تم تحديد وإعداد الطرق والممرات اللازمة لوصول المركبات إلى أماكن العبور – كما تم اعداد الخطط المناسبة للتنسيق بين مختلف أفرع القوات المسلحة فقام سلاح الجو بدوره وقامت المدفعية بدورها وقام رجال الصاعقة البواسل بالعمل خلف خطوط العدو وتعطيل قواته – كما أن تلك القوات الخاصة استطاعت أن تبطل استخدام خراطيم المواد الملتهبة وذلك بأن قامت مجموعتان من رجال الصاعقة قبل ساعة الصفر بوقت كاف بالتسلل إلى الضفة الشرقية للقناة وسدت مواسير المواد الملتهبة بتركيبة معينة من الأسمنت وبعض اللدائن سريعة التصلب كما قامت المجموعة الثانية بقطع خراطيم الطلمبات الماصة الكابسة .

وفى مواجهة الساتر الترابى – وبعد أن أثبتت التجارب عدم جدوى استخدام المفرقعات أو غيرها من الوسائل ضده تفتق ذهن ضابط مهندس شاب عن اقتراح باستخدام طلمبات المياه « أسلوب التجريف » وهكذا نجحت تلك الفكرة الرائدة فى فتح الثغرات اللازمة لعبور المركبات فى الساتر الترابى . على أن تقوم قوات المشاه فى الوقت نفسه بالعبور فوق الساتر الترابى بأسلحتها وذلك باستخدام عربة يد يجرها الجنود تحمل له الأسلحة والذخيرة اللازمة للتعامل مع العدو وخاصة الطلقات والمدافع الصغيرة المضادة للدبابات .

* * *

وهكذا نجحت خطة التغلب على المانع المائى والساتر الترابى – وإذا ما حللنا عناصر تلك الخطة نجد أنها اعتمدت على الإنسان أولا وأخيرا ، ففى مواجهة خراطيم المواد الملتهبة كان الاعتماد على العنصر البشرى « رجال القوات الخاصة وبأدوات بسيطة جدا» فقامت هذه القوات إما بسد فوهات الأنابيب بالأسمنت واللدائن – أو بقطع خراطيم الطلمبات الماصة الكابسة، وهكذا كان العنصر البشرى هنا فاعلا – لأنه لو قدر لهذه المواد أن تعمل لكانت النتيجة مروعة – وبديهى أنه سبق تنفيذ هذه العملية عمليات بحث شاقة واستطلاع وتحديد دقيق لأماكنها وكل هذا الجهد يعتمد أساساً على الإنسان .

* قارن بين هذا العمل وبين الغاء هتلر لعملية عبور مشابهة بسبب وجود مواد ملتهبة قابلة للاشتعال فى معاركه مع بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية .

وفى مواجهة المانع المائى تم الاعتماد على الأدوات المحلية لصنع الكبارى والقوارب – وتم التعويض عن بدائية الأدوات بكفاءة الرجال وشجاعتهم وهكذا فإن استخدام الأدوات المحلية يؤكد إمكانية تجاوز ضعف الإمكانيات بالمزيد من الاعتماد على الطاقات الإنسانية – أضف إلى هذا أن الدراسة المضنية

والتدريب الشاق على العبور واختيار أفضل الأماكن والأوقات للعبور يؤكد صحة النظرية الإسلامية – فكل تلك الأمور هى جهد إنسانى أولا وأخيرا

وللتغلب على الساتر الترابى الذى وصفه أحد الخبراء الروس بأنه يحتاج إلى قنبلة ذرية – استخدم المصريون فكرة عبقرية وهى استخدام طلمبات المياه « التجريف » وهى فكرة بسيطة وأدواتها متاحة وتؤكد أيضا أن الإنسان بمزيد من الجهد والتفكير والأخلاص قادر على تجاوز أقوى الصعوبات ، أضف إلى ذلك استخدام المشاه لعربة يد تحمل الأسلحة والذخيرة اللازمة وهى فكرة بسيطة أيضا قد مهد الطريق أمام تلك القوات لتسلق الحاجز الترابى منذ اللحظة الأولى – وهو الأمر الذى كان صعبا بل مستحيلا ما لم يتخفف الجندى من حمولته لو حملها على كاهله وأراد أن يستلق بها الساتر . وكانت هذه الأسلحة والذخيرة لازمة لاقتحام خط بارليف والتعامل مع الدبابات .

وعلى مستوى القوات الجوية المصرية – فإن الطيارين البواسل قد حولوا طائراتهم الأقل كفاءة إلى طائرات أكثر كفاءة من العدو وذلك اعتمادا على حسن تدريبهم وعلى شجاعتهم المنقطعة النظير ، والأمر ذاته ينطبق على رجال المدفعية والدفاع الجوى ، وكل هذا الجهد الإنسانى ساهم فى نجاح العبور حيث ساهمت الضربة الجوية والمدفعية فى تعطيل وشل قوات العدو فترة كافية تسمح بالعبور ، وكذلك قيام رجال الصاعقة بمهمتهم خلف خطوط العدو – وهو أيضا أمر يعتمد على شجاعة وبسالة وحسن تقدير هؤلاء الرجال للأمور وكلها أمور إنسانية .

إذن كل هذا يؤكد أن الإنسان هو العامل الأهم فى القتال – وهو ما تؤكده المدرسة الإسلامية . وهى تؤكد كفاءة وقدرة الإنسان المصرى على عكس ما تروج المدرسة الاستعمارية .

ونصل الآن إلى خط بارليف . ذلك الخط من الاستحكامات والتحصينات الذى أقامته إسرائيل واعتبره قادتها من أكفأ الخطوط الدفاعية وأن الجيش المصرى غير قادر على مواجهته . وبديهى أن هناك عمليات استطلاع ورصد قام بها رجال الصاعقة والاستطلاعات لدراسة ذلك الخط نقطة نقطة ودشمة دشمة ، ودرسوا نقاط القوة والضعف فيه ووضعوا الخطط اللازمة لاقتحامه وهذا كله جهد إنسانى فى المقام الأول ولولا تلك الدراسة التفصيلية والدقيقة لهذا الخط لكان اقتحامه مستحيلا . وقد كانت خطة اقتحام نقاط خط بارليف تقوم على دكه بالمدفعية الثقيلة والطيران على أن يقوم رجال المشاه والصاعقة باقتحام النقاط الحصينة والدخول إليها وإدارة معركة داخله . وقد نجح هذا الأسلوب أيما نجاح حيث أن الجندى الصهيونى غير قادر على المواجهة المباشرة – وكان الجنود الصهاينة يفاجأون بمن يدخل عليهم داخل حصونهم ويدير معركة معهم – وكان هذا كله يعتمد على شجاعة وكفاءة الإنسان أولا وأخيرا – فلم تكن نيران المدفعية ولا الطائرات ولا نيران الدبابات بقادرة على تدمير هذا الخط شديد التحصين – وهذا يؤكد مرة أخرى أن الإنسان كان هو العامل الحاسم فى كل مراحل المعركة .

وعلى مستوى المعركة مع سلاح الطيران الصهيونى – أقوى وأفتك الأسلحة الإسرائيلية وأشدها فعالية – والذى كانت إسرائيل تعتبره سلاحها الحاسم فى المعركة – وبالنظر إلى التفوق النوعى والكمى الهائل فى هذا السلاح فإن عبء شل فاعلية هذا السلاح وقعت أساسا على وسائل الدفاع الجوى المصرية المتكونة من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات والصواريخ الموجهة أرض جو وخاصة سام ٧ الذى يحمله فرد المشاة وبالطبع فإن ذلك كان يقتضى نظاما صارما من التنسيق والاستيعاب والكفاءة والتدريب للأطقم التى شغلت هذه الوسائل والتى نجحت فى تحقيق غطاء فعال للقوات التى تعبر أو التى عبرت إلى الضفة الشرقية للقناة – وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا الحقيقة العسكرية التى

تقول « أن الطائرة لا تواجهها إلا طائرة » لأدركنا الإنجاز الهائل الذى حققه رجال الدفاع الجوى فى تلك المعركة – حيث استطاعوا رغم الحقائق العسكرية أن يحققوا هدفهم فى شل قوة العدو الجوية اعتمادا على كفاءتهم وشجاعتهم وبذلهم الإنسانى -- وهو ما يؤكد أن الإنسان كان دائما هو العنصر الحاسم رغم كل شئ .

فإذا وصلنا إلى سلاح الطيران المصرى -- والذى كان الطيران الإسرائيلى يتفوق عليه كما ونوعا . نجد أن هذا السلاح قد استطاع فى الساعات الأولى للمعركة أن يقوم بضربة مركزه وحاسمة لقواعد وقوات وشبكة اتصال العدو فى سيناء مما أخر دخول سلاح الجو الصهيونى سماء المعركة مما أدى إلى تحقيق عملية العبور بنجاح – وقد اعتمد سلاح الجو المصرى فى ذلك أساساً على كفاءة الطيارين وفدائيتهم وروحهم العالية – وهى أمور إنسانية أساساً .

على أن النقطة الجدير بالاهتمام هى تلك السيمفونية المتناسقة والمتجانسة للتنسيق بين الطيران والدفاع الجوى والتى هى أيضا محصلة الجهد الإنسانى أولا وأخيرا . ولعل الدور الهام والخطير الذى لعبه سلاح الطيران المصرى ووسائل الدفاع الجوى المصرية فى حرب رمضان يؤكد أن العيب لم يكن فى رجال ذلك السلاح فى عام ١٩٦٧ .

ويمكننا أن ندرك خطورة ما قام به السلاح الجوى ووسائل الدفاع الجوى المصرى فى حرب رمضان إذا ما قرأنا ما قاله موشى ديان فى اليوم الثانى من القتال « لقد استطاع المصريون تحييد سلاحنا الجوى – وأننى آمل أن يرسل لنا الأمريكيون الأسلحة التى طلبناها » .

وقال الجنرال « أنتونى فارا رهوكلى » أستاذ التكتيك فى الجيش البريطانى « إن الطيارين المصرين أزالوا الدور الأسطورى للطيران الإسرائيلى فى حرب

١٩٧٣ وبالتالى تضاءل دور المدرعات الإسرائيلية فى تحقيق أى نجاح خلال معاركها التصادمية » .

وقد قال الخبير الأمريكى روبرت هونز « إن الطيارين وسلاح الدفاع الجوى المصرى والسورى استطاع تخفيض القوات الجوية الإسرائيلية إلى النصف فى الفترة من ٦ - ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ وبنهاية هذه الفترة تضاءل نشاط الطيران الإسرائيلى إلى حد كبير وبعيد إلى أن بدأ الدعم الجوى الأمريكى بالطائرات والطيارين الأجانب » .

إذاً فقد كان سلاح الجو المصرى رائعا - كما أن سلاح الجو الصهيونى قدمنى بخسارة فادحة وتم تحييده وإخراجه من المعركة برغم التفوق النوعى والكمى الهائل له - ألا يؤكد هذا أن العنصر الإنسانى والكفاءة القتالية كانا العاملان الأهم فى هذا الصدد .

* * * *

وإذا كانت إسرائيل تملك قوة مدرعة متفوقة على حد رأى الخبراء العالميين والذى وصل الأمر بأحدهم أن يقول « أنها واحدة من أقوى المدرعات فى العالم » . فإن علينا الآن أن نرى كيف استطاع المقاتل المصرى أن يواجه تلك المدرعات ويسحقها .

وقد اعتمدت الخطة المصرية على أن تكون الموجات الأولى للعبور والاقتحام للمشاة . وأن على هؤلاء المشاة أن يتصدوا للدبابات الإسرائيلية وتم تزويد هؤلاء المشاه بمختلف الأسلحة المضادة للدبابات فى نفس الوقت الذى تقوم فيه المدفعية والدبابات المصرية على الضفة الغربية للقناه بالمساعدة فى مواجهة تلك الدبابات كما تم عمل أكمنة يربض فيها عدد من جنود المشاه فوق الساتر الترابى

فى الضفة الغربية للقناة لاصطياد الدبابات الإسرائيلية بصواريخهم المضادة للدبابات « قناص الدبابات » .

وقد نجحت القوات المصرية فى شل فاعلية الدبابات الصهيونية واصطياد عدد كبير منها وخاصة على يد قناصى الدبابات الذين وصلت شهرة بعضهم إلى مستوى كبير مثل عبد العاطى صائد الدبابات الذى استطاع أن يدمر أكثر من عشرين دبابة .

والآن لنقرأ بعض أقوال قادة العدو لنعرف إلى أى مدى نجح المقاتل المصرى فى التصدى للدبابة وشل فاعلية قوات المدرعات الصهيونية. يقول زئيف شيف الخبير الإسرائيلى « كانت إصابات رجال المدرعات كبيرة » .

ويقول قائد إحدى سرايا المدرعات– الضابط « باروخ شمير » «نظرت حولى فشاهدت قذائف نارية مشتعلة ترقص فى الجو وهى فى طريقها إلى دباباتنا القريبة منى – لم أفهم بعد ماذا يحدث – ولكنى فهمت فى وقت لاحق أن هذه صواريخ وأن المشاة المصريين الواقفين أمامنا لا يقلون خطورة عن الدبابة ، كان هذا بالنسبة لنا مفاجأة تامة وطوال ذلك اليوم كنت أشاهد هذه القذائف النارية تتنزه فى الصحراء وهى تنطلق من قلب الرمال ، اشتعلت النار فى دبابتى هى الأخرى قفزنا منها كنا مذهولين ، ولم يكن حظ الدبابات الأخرى فى السرية بأوفر من حظنا – فعندما نظرنا من خلف التلال الرملية ، شاهدنا مشاعل محترقة كانت هذه فيما مضى دبابات السرية » .

يقول الكاتب الأمريكى « كنث براور » « فى الأيام الثلاثة الأولى لحرب ١٩٧٣ على الجبهة المصرية قام الإسرائيليون بشن هجمات مضادة سريعة بالمدرعات – ولكنهم كانوا يفشلون فى كل مرة ويصابون بخسائر جسيمة حتى أنه دُمر لهم أكثر من ٢٥٠ دبابة على أيدى المشاة المصريين الذين صمدوا فى

الصحراء المكشوفة ومعهم الصواريخ والقذائف المضادة للدبابات .

وهكذا أثبت أفراد المشاة المصريين المسلحين بالأسلحة المضادة للدبابات قدرتهم على هزيمة سلاح المدرعات الإسرائيلى - وهو ما يثبت مرة أخرى أن الإنسان هو العامل الحاسم فى القتال .

* * * *

يقول موشى ديان « إن أخطر ما نواجهه الآن فى سيناء هم المشاه المصريين إنهم مزودون بصواريخ صغيرة يختفون بها عن الأنظار ، فإذا ما تقدمت الدبابات الإسرائيلية أطلقوا عليها صواريخهم فيصيبونها وتصبح عاجزة تماما » .

* * * *

إننا الآن سنرسم بطريقة موجزة صورة حقيقية أخرى حدثت على مشارف مدينة السويس فى الأيام العشر الأخيرة من رمضان توضح إلى أى مدى يتمتع الإنسان المصرى بصلابة غير عادية وبقدرة فذه على المواجهة .

كانت القوات الصهيونية قد نجحت فى التسلل عبر الثغره فى منطقة الدفرسوار واستطاعت أن تصل إلى مشارف مدينة السويس وأن تحاصرها وحاولت تلك القوات أن تحتل المدينة - وكان معنى احتلال المدينة لا قدر الله أن حبلا قد التف حول عنق الجيش الثالث فى سيناء - وأن القاهرة ذاتها قد أصبحت مهددة .

تعرضت مدينة السويس لقصف بشع من الطائرات والدبابات والمدفعية الصهيونية وكانت المدينة تعانى من حصار الجوع والعطش . ولكن أهل المدينة الشرفاء قرروا أن يقاتلوا - فلم يتعود المسلمون على حد قولهم أن يستسلموا

وهددت مكبرات الصوت الصهيونية بدك المدينة ولكن ذلك لم يفت فى عضد أهالى المدينة .

وكعادة الأمة حين يجد الخطر فقد لاذ أهالى السويس بالمسجد - واتخذوا من الشيخ المجاهد حافظ سلامة قيادة لهم لما عرفوا عنه من طول الجهاد والبلاء فى سبيل الله - واجتمع أهل المدينة فى مسجد الشهداء وقرروا أن يصمدوا وأن يقاتلوا ، وصمدت المدينة للحصار وتقاسم أهلها كوب الماء وكسرة الخبز - بل إنهم أرسلوا شيئا منها إلى رجال الجيش الثالث المحاصرين فى سيناء ، استخدم أهالى السويس ما تيسر لهم الحصول عليه من الأسلحة من جنود الجيش الثالث فى المدينة وخاصة الذين استشهدوا أو جرحوا ، كان مركز القيادة فى مسجد الشهداء . وانطلقت المجموعات المجاهدة من المسجد لتسد منافذ المدينة بالسيارات والمصفحات المحطمة . وقامت تلك المجموعات بعمل الأكمنة فى مداخل المدينة واستطاعت أن تصد جميع الهجمات الصهيونية ، وكانت الدبابات التى تنجح فى دخول المدينة تتعرض للتدمير على يد الأهالى الذين استخدموا فى ذلك ما تيسر لهم من الأدوات - شارك الجميع فى تلك المعارك - الرجال والأطفال والنساء - والعمال والتجار ورجال الدين - ولم ينج جندى صهيونى واحد تجرأ على دخول المدينة واستطاعت المدينة أن تظل صامدة لتخوض معركة بعد معركة شاهدة على قدرة الإنسان المصرى .

إن عددا من الملاحظات يمكن أن نسجلها هنا - فبرغم القوات الصهيونية الضخمة والمسلحة جيداً - وبرغم بساطة إمكانيات أهالى السويس فإن أهالى السويس نجحوا فى الصمود لمدة طويلة برغم الجوع والعطش وآلاف القنابل والصواريخ ، ويمكننا أن نفهم شراسة المعركة إذا ما أدركنا أن العدو الصهيونى كان يعول أهمية كبيرة على سقوط المدينة لما لذلك من أثر نفسى وعسكرى كبير . وكل هذا يؤكد ان الجماهير قادرة على الصمود والانتصار

مهما كانت قوة الأعداء ومهما كانت قوة تسليحهم ، وأن الإنسان هو العامل الرئيسى والأهم فى المسألة .

* * * *

على أن الأمر لم يقتصر فى حرب رمضان على الأداء البطولى لرجال القوات المسلحة المصرية أو هؤلاء الأهالى فى السويس أو منطقة الدفرسوار التى قدر لهم أن يواجهوا القوات الصهيونية برجولة وشجاعة . بل إن روح رمضان قد سرت فى جسم الأمة كلها . كانت المشاركة الشعبية فى المعركة هائلة ورائعة . فى كل قرية مصرية قريبة أو بعيدة عن جبهة القتال كانت قلوب الرجال والنساء والأطفال معلقة بالمذياع وأحاديث العلماء المجاهدين فى المساجد يشرحون فيها أبعاد المعركة وما تم إنجازه فى جبهة القتال - كانت المساجد كخلايا النحل يجتمع فيها الأهالى ليتدارسوا أمر مشاركتهم فى المعركة ووسائلها - قدم الناس كل ما لديهم من ملابس وطعام لدعم رجال القوات المسلحة .

وعرض الكبير والصغير أن يتبرع بدمه، وتكونت لجان للتضامن مع أهالى المقاتلين وخدمتهم . لم يكن هناك بيت فى مصر كلها إلا ووضع كل ما يملك تحت تصرف المعركة . ليس هذا فحسب - بل وعلى مستوى الأداء الوظيفى تخلص الجهاز الوظيفى المصرى المشهور بالبيروقراطية من كثير من بيروقراطيته وأصبح الإنسان قادرا على إنجاز طلباته فى أسرع وقت - وقام العمال فى المصانع بالعمل ليلا ونهارا لزيادة الإنتاج وحماية مصانعهم . كان كل شئ فى مصر يتحرك بروح رمضان .

* * * *

لماذا كان هذا - وما هى دلالاته - إن الحقائق المجردة . تقول أن العدو الصهيونى يمتلك أحدث الأسلحة وأقواها - ويقف خلفه دول حلف الأطلنطى

بإمكانياتها الهائلة – وعلى الجانب الآخر يقف الإنسان المصرى بأسلحة غير متكافئة ومع ذلك كانت النتيجة أن هذا الإنسان قاتل فانتصر ، كان العدو يمتلك أحدث أجهزة التصنت والتجسس الاليكترونية وكان لديه المعلومات أولا بأول عن طريق الأقمار الصناعية وأجهزة الرصد التابعة لأمريكا والحلف الأطلنطى – وكان لدى الإنسان المصرى أن يعتمد على نفسه فى الاستطلاع خلف الخطوط وأن يحصل على معلوماته بالعمليات الفدائية والتسلل .

كان العدو الصهيونى يمتلك أحدث الطائرات وأقوى سلاح جوى فى المنطقة – ومع ذلك نجح الإنسان المصرى بالتدريب الشاق والاعتماد على الجرأة والشجاعة والفدائية وأبسط الأسلحة أن يشل حركة قوات العدو الجوية .

كان العدو الصهيونى يمتلك أقوى سلاح مدرعات – ولكن فرد المشاه والكوماندوز استطاع بما يحمله من أسلحة بسيطة أن يحول هذا السلاح إلى ركام .

كان هناك مانعا مائيا لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحروب – ولكن الرجال كان لديهم الإرادة فصنعوا المعابر والكبارى والقوارب وصنعوا بأجسادهم وأرواحهم حائطا لحمايتها واستطاعوا العبور رغم كل هذا كان هناك الساتر الترابى الذى قال عنه أحد الخبراء الروس أنه يحتاج إلى قنبلة ذرية ولكن عبقرية الإنسان المصرى وبأدوات متاحة استطاعت أن تحدث ثغرات فى هذا الساتر المنيع باستخدام فكرة عبقرية لأحد المهندسين المصريين « فكرة التجريف بمضخات المياه » .

وكانت هناك خراطيم المواد الملتهبة . ولكن رجال الكوماندوز المجاهدين استطاعوا أن يحيلوها إلى خراطيم صماء .

كان هناك خط بارليف المنيع – ولكن كان هناك رجال المشاه الذين أقتحموا الحصون بأجسادهم فأحدثوا ذعرا هائلا لقوات العدو .

كان هناك شعبا يجاهدا بجانب الجيش المقاتل – واستطاع أهالى السويس أن يصمدوا للحصار حصار الجوع والعطش والقصف وأن يحطموا كل الهجمات الصهيونية على مشارف المدينة وأن ينقذوا الجيش الثالث فى سيناء وأن يحرموا القوات الصهيونية من فرصة السيطرة على مدينة السويس بما لها من آثار نفسية وعسكرية ، وكان هناك الإنجاز الرائع للعمال فى المصانع والفلاحين فى الحقول والموظفين فى المكاتب .

كان هناك الإنسان المصرى . الذى قاتل فانتصر .

إذن فقد كانت حرب رمضان هى القاعدة الصالحة لتقييم الإنسان المصرى وليس حرب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ – لأنه فى كل تلك المعارك لم يحارب – فلا نستطيع أن نجعلها اختبارا صالحا – إذا فالحقيقة الأولى هى إذا قاتل الإنسان المسلم انتصر . والحقيقة الثانية أن ذلك الإنسان أقوى من الآلة ، والحقيقة الثالثة : إنه إذا وجد هذا الإنسان سواء كان مقاتلا أو مدنيا الظروف الصحيحة لاستخراج طاقاته فإنه يكون عبقريا .

ولكن ما هذه الظروف الصحيحة ؟

إننا إذا حللنا ظروف حرب رمضان مقارنة بظروف حرب ١٩٦٧ نجد أن الظرف الأول هو السماح لهذا الإنسان بالالتحام والقتال ونجد أن الظرف الثانى هو أن يكون الشحن المعنوى لهذا الإنسان مرتبط بعقيدته ووجدانه « الإسلام » . فعلى حين كان الشحن المعنوى فيما قبل ١٩٦٧ يعتمد على عقائد وأفكار لا يعرفها ولا يفهمها بل يرفضها الإنسان المصرى نجد أن الشحن المعنوى فى حرب رمضان كان إسلاميا – فمن ناحية قامت الحركة

الإسلامية برضا النظام أو عدم رضاه بهذه الأمر – وقام به علماء الإسلام المجاهدين الذين ذهبوا إلى الجنود فى الخنادق وتحدثوا عن بدر وحطين وعين جالوت – وقام به الجنود أنفسهم بمبادرات شخصية منهم مع بعض الضباط – وساهم فى هذا الأمر أن توقيت المعركة جاء فى رمضان وهو شهر انتصارات المسلمين أولا – وهو شهر ترتفع فيه الجوانب الإيمانية للإنسان المسلم بصورة مباشرة . كما أن موعد المعركة كان فى نفس ذكرى معركة بدر – أضف إلى هذا كله صيحة الله أكبر التى خرجت من صدور الجنود الصائمين .

والظرف الثالث هو أن الإنسان المصرى تعرض قبل ١٩٦٧ لحالة من العزلة وفرضت عليه القيادة السياسية ألا يفكر وأن يسمع فيطيع وتم إخلاء الحياة السياسية من كل شئ ما عدا حزب الحكومة « الاتحاد الاشتراكى » ليس هذا فحسب بل إن أى صاحب عقيدة كان يتعرض للسجن أو القتل أو التعذيب – بل مورس التعذيب على الإنسان العادى فى حين أن الظروف قبيل حرب رمضان كانت أفضل كثيرا جدا فى هذا الصدد .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ صدق الله العظيم

الآيتين ٨ ، ٩ من سورة الأنفال

مـــدد الله

ومدد الله تعالى لا يأتى للقاعدين أو الكسالى أو المتراخين - ولكنه يأتى للمجاهدين الذين يبذلون من الجهد أقصاه ومن العمل آخر مداه .

ومدد الله تعالى حقيقة إسلامية لا ينكرها إلا جاحد . وهى حقيقة تستند إلى صريح القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . وإجماع العلماء ، وقد جاء مدد الله تعالى للمسلمين فى غزوة بدر وتخلف فى غزوة أحد ثم عاد ليظهر فى غزوة الخندق ، جاء فى الأولى مباشرا عن طريق الملائكة المردفين وجاء فى الثالثة غير مباشر عن طريق الرياح التى اقتلعت خيام الأحزاب والقت بهم فى الصحراء ، جاء فى الأولى والثالثة لأن المسلمين فيهما بذلوا غاية جهدهم فى القتال أو التدبير أو استخدام المكر والحيلة ، وتخلف فى الثانية لأن الصحابة رضوان الله عليهم لم ينفذ بعضهم خطة رسول الله ﷺ وأوامره .

ومدد الله يأتى دائما ولا يتخلف وهذه حقيقة هامة جدا فى وجدان المسلم تدفعه إلى الثقة بالنفس وإلى الإحساس بالتفوق بل وتحقق له من الناحية العملية فوائدا جمة . فإذا كان المسلم يعرف أنه يستند فى قوته إلى صاحب القوة إلى القهار الجبار فإن ذلك يجعله يخوض المصاعب وقادرا على إجتياز المستحيل -- فأى قوة وأى مستحيل لا تقاس بجانب قوة الله تعالى وقدرته . ولعل تلك الحقيقة الهامة بما لها من آثار نفسية وعملية هامة دفعت الاستعمار دائما ودفعت أبناء المدرسة الاستعمارية دائما إلى محاولة نزع تلك الحقيقة من وجدان أمتنا والقاء ظلال من الشك حولها ومحاولة تطويق آثارها وذلك لكى يسهل على الاستعمار ترويض أبناء أمتنا والتحكم فيهم ونزع كل ما من شأنه زيادة قدرتهم على المواجهة والصمود .

وهناك شرطان أساسيان لوصول مدد الله تعالى – أولهما هو طاعة الله تعالى وثانيهما هو بذل كل الجهد والطاقة .

وإذا ما طبقنا هذان الشرطان على حرب رمضان المجيدة – نجد أن طاعة الله تعالى قد تحققت وذلك لأن جنود جيشنا قد تمسكوا بأهداب تعاليم الإسلام . وشيدوا المساجد فى وحداتهم العسكرية – وأقاموا فيها الصلاة بل وعقدوا ندوات حول غزوات الرسول وحول الأفكار الإسلامية عموما – كما أنهم دخلوا المعركة فى شهر رمضان الكريم وهو الشهر الذى تتجلى فيه طاعة الله تعالى لدى المصريين – وكان أكثر هؤلاء الجنود صائمين – وإن كان الإفطار مباحا فى الحرب – بل إن صيحة الله أكبر التى انطلقت تلقائيا من صدورهم – إنما تعبر عن مكنون صدور وتوجههم الحقيقى الذى تجلى فى تلك اللحظات الهامة من تاريخنا ، وعلى مستوى الإعداد وبذل الجهد فقد بذل الرجال كل جهدهم وأخرجوا طاقاتهم بكاملها . سواء بالتدريب الشاق أو قدح أذهانهم للتغلب على الصعوبات الفنية ، أو محاولاتهم المستمرة للحصول على السلاح والآلات اللازمة للحرب – وما لم يتيسر لهم الحصول عليه قاموا بتصنيعه – كما بذلوا جهدهم فى إعداد الخطط ودراسة كل الاحتمالات وفى الاستطلاع والرصد والدراسة الفنية لكل صغيرة وكبيرة وبذلوا جهدهم وطاقاتهم فى كل مجال قبل المعركة وأثنائها .

وهكذا جاءهم مدد الله تعالى بطريقة مباشرة وبطريقة غير مباشرة – سواء فى أن الله تعالى أصاب العدو بالعمى والصمم رغم أنه كان يرى ويسمع فلم يقدر حقيقة الأمر رغم أنه يراه بعينه – أو فى ذلك التخبط الذى ساد صفوفه عقب المعركة – أو فى توفيق الله تعالى فى عمليات قواتنا أثناء العبور وبعده . أو فى تلك الآيات والمعجزات التى رآها الجنود رأى العين . سواء فى القذائف التى لم تنفجر أو فى توجيه قذائفهم نحو دبابات العدو وأهدافه أو هؤلاء الذين

يرتدون الزى الأبيض والذين رآهم معظم الجنود على الجبهة فى أيام القتال والتى تواترت الأخبار التى نقلها معظم الجنود والضباط عن حقيقة هؤلاء الملائكة الذين شاركوا فى المعركة . أو فى الربط على قلوب المقاتلين أثناء المعركة .

وبديهى أنه برغم تواتر تلك الروايات مما يقطع بصحتها فإن أبناء المدرسة الاستعمارية من العلمانيين واليساريين راحوا يحاولون إنكار ذلك والقاء ظلال من الشك حوله – وذلك خدمة لأهداف الاستعمار التى تريد اجتثاث كل ما من شأنه زيادة ثقة أمتنا فى نفسها .

وقد تركزت حجج أبناء المدرسة الاستعمارية فى إنكار تلك الخوارق على النحو التالى .

– أنها أمور لا تتفق مع منطق العلم .

– أنها أمور تقود إلى التفكير الخرافى وسيادة روح التواكل والعجز فى صفوفنا .

والآن لنبدأ فى مناقشة حجج هؤلاء – فمن ناحية منطق العلم والتفكير العلمى فإن ظاهرة ما إذا ما رآها الآلاف بل عشرات الآلاف وتواترت بشأنها الروايات – فليس من العلمية فى شئ إنكارها ، ولكن كان عليهم تصديق الرواية ما دامت متواتره وعدم إنكارها – ويمكنهم بعد ذلك البحث والاختلاف فى تفسيرها .

على أننا كمسلمين نؤمن وانطلاقا من الآيات القرآنية المحكمة والسنة النبوية المطهرة بأن مدد الله يأتى دائما للمجاهدين – وهذا الأمر فى وجداننا وعقيدتنا أثبت وأرسخ من كل منطقهم ومنهجهم الذين يدعون علميته رغم أنه لا علمى ولا موضوعى .

ومن ناحية أنها أمور تقود إلى التفكير الخرافى وسيادة روح العجز التواكل فى صفوفنا – فإن كل مسلم يعلم أنه مأمور بطلب العلم – وأنه مأمور بالبحث فى سنن الكون ودراستها وهناك عشرات الآيات القرآنية التى تدعو إلى ذلك – كما أن المسلم يعرف أن مدد الله تعالى لا يأتى إلا بعد أن يبذل الإنسان الجهد كل الجهد والطاقة كل الطاقة – الجهد العقلى والبدنى والنفسى .

إن إيمان المسلم بأن مدد الله يأتيه لا يدفعه إلى العجز والتواكل بل على العكس تماما يدفعه إلى الإصرار والعمل برغم كل المصاعب لأنه يعرف أنه مهما كانت المصاعب أمامه فإن عليه أن يبذل كل جهده وأن يستنفد كل طاقته ثم يترك الباقى لله تعالى .

هل عرفنا الآن لماذا جن جنون أبناء المدرسة الاستعمارية من تواتر الروايات عن مدد الله فى حرب رمضان ؟!

والآن علينا أن نقدم بعض الخوارق المباشرة التى شاهدها آلاف من شهود العيان بحيث لا ينكرها إلا مكابر .

المكان مدينة الصمود – مدينة السويس – مسجد الشهداء .

الزمان يوم عيد الفطر – ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

قرر أهالى المدينة – فى إطار تحديهم للحصار الصهيونى أن يقوموا بأداء صلاة العيد فى جماعة فى مسجد الشهداء . وكان هناك رأى بعدم إدائها حتى لا يتعرض المصلون لقذائف الطيران والمدفعية الإسرائيلية .

الشهود . كل من حضر الصلاة من أهالى السويس أو جنود الجيش الثالث .

المعجزة : تنطلق آلاف القذائف من المدفعية والدبابات الإسرائيلية ويتعرض المسجد لقصف الطائرات – وتتساقط القذائف حول المسجد دون أن تصيبه ولو قذيفة واحدة أو صاروخ منها – وتتم الصلاة – فقد كان المسجد فى حراسة الله تعالى .

* يقوم الشيخ المجاهد حافظ سلامة قائد المقاومة الشعبية بتوزيع كعكة على كل مصلي ويبلغ عددهم عدة آلاف » من صندوق وحيد للكعك كان معه . ولم ينفذ هذا الصندوق .

– قام اليهود المحاصرون لمدينة السويس بمنع المياه عن المدينة وذلك بقطع مياه الترعة الحلوة عن المدينة – وتشح المياه تماما – ويقترح الشيخ عبد الله رضا أحد الوعاظ المجاهدين – أن يتم حفر بئر أمام مسجد الشهداء لاستخدام مياهه – المالحة طبعا – فمدينة السويس ليس بها مياه حلوة – فى الوضوء وغسيل دورة مياه المسجد والاستنجاء والاستحمام وغيرها – ويشاء الله تعالى أن تخرج المياه عذبه – وتشرب المدينة الباسلة .

– يأتى إلى مسجد الشهداء – مقر قيادة المقاومة الشعبية – الحاج مبارك « ٦٠ سنة » ويخبر الشيخ حافظ سلامة أن هناك بئرا قديمة مهجورة اسمها بئر سيدى المدبولى – ويذهب الشيخ حافظ إلى البئر مع أهل السويس ويقرأون الفاتحة فإذا بالمياه تتدفق – فتغذى المدينة وتغذى الجيش الثالث المحاصر فى سيناء واستمر تدفق المياه حتى نهاية الحصار .

– كان هناك نقص حاد فى السولار اللازم لإدارة المخابز – ويشاء الله سبحانه أن يترك أحد الجنود سيارته المحملة بالسولار داخل أحد الحوارى بالمدينة « خشية إصابتها بالطيران على ما يبدو » وربما استشهد هذا الجندى – ويقوم المجاهدون فى المدينة بالاستفادة منها وتوزيعها على المخابز – لتقوم بإعداد الخبز اللازم للمدينة المحاصرة .

اليس هذا هو مدد الله تعالى – ولكنه جاء إلى المجاهدين فى المدينة – لأن أهل المدينة بذلوا كل ما فى طاقاتهم – قاتلوا بالسلاح وبأيديهم – قفزوا على الدبابات وأشعلوا فيها النار – صنعوا الأكمنة فى مداخل المدينة ومنعوا القوات اليهودية من دخولها – اجتمعوا فى المسجد وقرروا الصمود والقتال وتدارسوا الموقف – لم يفت فيهم حصار الجوع والعطش وآلاف الصواريخ والقذائف – تقاسموا اللقمة وكوب الماء . فجاءهم مدد الله تعالى .

الجندى أحمد العنانى – من محافظة الدقهلية –

« كنت ضمن كتيبتى فى منطقة كبريت – وكنا نتعرض لقصف متواصل من الطائرات الإسرائيلية . وكانت يد الله تحرسنا – كانت الصواريخ تتدفق من الطائرات كالأمطار الغزيرة . ومع ذلك كنا ننجوا فى كل مرة نتعرض فيها للقصف . وفى احدى المرات أصاب صاروخ الموقع الذى كنت فيه . وبعد هدوء القصف . وجدت أن أشيائى كلها احترقت . كان لدى بعض الملابس والكتب والأوراق وغيرها فحصت أشيائى فوجدتها كلها محترقة ، وكانت المفاجأة حينما وجدت المصحف سليما لم تمسه النار رغم أنه كان فى وسط ملابسى وكتبى وأوراق – أثرت هذه الحادثة فىّ وفى زملائى وهزتنا جدا – شعرنا أن الله معنا وأن عنايته ومدده لن يتخلفان عنا – زادتنا هذه الحادثة إصرارا على القتال والصمود وارتفعت معنوياتنا جدا .

– الملازم أول أحمد منصور – الشرقية « كنا فى مهمة خلف خطوط العدو – وكانا عددنا حوالى الـ ٥٠ فردا . واستطاعت أجهزة الرصد الإسرائيلية أن تحدد موقعنا – وعلى الفور جاءت الطائرات الإسرائيلية – وأحسسنا أننا أصبحنا فى قبضة الموت – أطلقت الطائرات الإسرائيلية علينا عشرات الصواريخ وأمطرتنا بوابل من رصاص الرشاشات ولم يقتصر الأمر على الطائرات – بل جاءت مجموعة من الدبابات حوالى ١٢ دبابة ودكت

المنطقة التى كنا فيها بمدافعها – كما تساقطت علينا قذائف المدفعية الإسرائيلية ، ومن العجيب أن الرصاص كان يمر من فوق رؤوسنا أو يسقط حولنا – وكذلك الصواريخ والقذائف ولم يصب أحدنا بسوء . كأننا محاطون بالعناية الربانية – واستطعنا بعدها أن نحقق مهمتنا بنجاح .

– المقاتل صلاح الشيبانى « الغربية »– « كنت أحد جنود الجيش الثالث فى سيناء – وكان الماء قد نفذ منا – وكنا نتعرض لقصف الطائرات وفى احدى المرات سقط صاروخ بالقرب منا – وانفجرت المياه من الأرض نتيجة هذا الانفجار– ومن العجيب أنها كانت مياه عذبة– وهكذا شربنا وشربت معنا الكتائب القريبة منا .

لماذا
تخلف الفن والأدب عن مواكبة روح رمضـــان

الحديث عن الحرب - وعن البطولات - عن المعارك التى تخوضها الشعوب - تسجيل الانتصارات والهزائم - العبر والدروس . كل هذا فريضة على كل أمة حية تريد أن يكون لها مستقبل - والفريضة تكون أكثر وجوبا وأشد إلزاما على هؤلاء القادرين على ذلك من أصحاب الأقلام - الكاميرات - الفرش والألوان - بل وعلى المغنى الشعبى على السواء .

والله سبحانه وتعالى - لفت أنظارنا إلى ذلك فى كتابه الكريم - فقد اعطى القرآن الكريم مساحات واسعة لمناقشة المعارك التى خاضها المسلمون الأوائل ضد المشركين وحلل فيها أسباب النصر والهزيمة على السواء . والله سبحانه وتعالى يريد أن يعلم المسلمين درسا - لأن البلاء فى المعارك والانتصار فيها مرتبط أشد الارتباط وأوثقه بدراسة كل ما يتصل بالمعارك من دروس وعبر وتوازنات قوة وعلاقات مع المحيط الخارجى وغيرها من الظروف المحيطة بكل معركة .

ومازلنا حتى اليوم نقرأ فى كتاب الله الكريم دروس وعبر معارك بدر واحد والخندق وحنين بل والسرايا الصغيرة والكبيرة والغزوات ضد يهود المدينة وغيرها من المعارك التى خاضها المسلمون الأوائل .

إذن فتسجيل المعارك التى تخوضها الأمة بكل ملابساتها ليس ترفا بل هو فريضة والقرآن الكريم لم يقتصر على سرد المعارك بل حللها - وركز على أسباب القوة والضعف - عوامل الانتصار والهزيمة - بل وسجل حتى الظروف النفسية للمقاتلين لحظات الخوف - لحظات الشك - اختلال ميزان القوى وغيرها .

والاهتمام بالمعارك ليس قاصرا على المسلمين الأوائل أو قل أنه ديدن كل شعب يريد أن يصنع مستقبله - ففى قصر فرساى بفرنسا مثلا - تجد أن المصورين قد سجلوا كل معارك نابليون الكبيرة والصغيرة .

وهوليود اهتمت بتسجيل معارك المهاجرين الأمريكيين ضد الهنود الحمر – رغم ما فيها من تزوير واضح للتاريخ . لأن هؤلاء يعرفون أنهم بهذا يصنعون مستقبل بلادهم والرواية الشهيرة لتولستوى « الحرب والسلام » قد أخذت مكانا منفردا فى تاريخ الأدب وهى رواية سجلت الحرب الروسية الفرنسية .

بل إن إسرائيل لا تترك معركة صغيرة أو كبيرة إلا سجلتها حتى أنها أنتجت فيلما سينمائيا عن ما يسمى « بعملية عنتيبى » .

إذن تسجيل البطولات والاعتزاز بالمعارك أمر بديهى لكل شعب وأمة بل إن الأمم أحيانا تبحث عن حدث تافه جدا لتصنع منه أسطورة بطولة تتغنى بها .

يقول العقيد شوقى حامد رئيس تحرير مجلة النصر – وهو مقاتل « أن الانطباع العام هو أن الأدباء لم يعبروا عن بطولات ١٩٧٣ التعبير الذى يرتفع إلى مستوى الحدث » قال العقيد شوقى حامد ذلك فى مواجهة أدباء مصر – ونحن نوافقه تماما على هذا الرأى بل إن أحدا من الأدباء لم يستطع أن يفند أو ينفى ذلك .

فلماذا كان التعبير متواضعاً أمام الحدث ؟

فيمن يكمن العيب إذا ؟ هل فى الحدث ذاته ؟ لا أحد يستطيع أن يقول ذلك فمما لا شك فيه أن حرب « رمضان » كانت معركة بطولية نادرة على مستوى الإعداد والتجهيز والتخطيط والتمويه – والأداء الفردى والجماعى بل والتنسيق بين مختلف الأسلحة – على مستوى غرف العمليات وعلى مستوى الجيوش والفرق والألوية والكتائب والأفراد – بل وعلى مستوى توازن القوى وإحداث نتائج ضخمة جدا بالقياس بالأمكانيات ومستوى التسليح . إن تلك المعركة تعد فخرا هائلا جدا لا ينضب للتعبير الفنى بكل مكوناته . بل

إن التلاحم الشعبى والتفاعل بين الشعب وقواته المسلحة فى حد ذاته كان من الروعة بمكان بحيث أنه يصلح لعشرات ومئات الأعمال والأشكال الفنية .

إذن العيب ليس فى الحدث – قد يقول البعض أن العيب يكمن فى المعوقات والقيود التى تقف فى وجه الفن – ولكن متى كانت المعوقات والقيود سببا فى قتل الإبداع الفنى – ألم يعبر المقاتلون أصعب مانع مائى – فلماذا لا يعبر الأدباء والفنانون مانع المعوقات ؟

إذن ما هو التفسير الصحيح لتخلف الفن عن مواكبة معركة رمضان المجيدة – وفى الحقيقة فإن هناك مجموعة من الأسباب . لعل أولها وأخطرها يكمن فى قطاع كبير من الفنانين الذين يمتلكون الأدوات الفنية ويسيطرون على المراكز الفنية بكل ما فيها من امكانيات – لقد تربى هؤلاء على مائدة الاستعمار وتشربوا ثقافته وكونوا أساليبهم الفنية والفكرية استنادا إلى وجدان حضارى مختلف عن الوجدان الحضارى لأمتنا وبالتالى مقاتلينا – فلم يفهموا ولم يستوعبوا وعندما سمعوا اندهشوا وعندما رأوا لم يبصروا – لأنهم سمعوا ورأوا إنسانا لم يعرفوه ولن يعرفوه :

لقد كان المقاتل يستند فى حرب رمضان إلى تراثه ووجدانه الحقيقى – وكان شامخا يقف على أرضيته الحضارية الصحيحة – فكيف يستطيع هؤلاء أن يعبروا عن ذلك الإنسان وهم لا يعرفون تلك الأرضية وينكرون ذلك الوجدان هذه ناحية – والناحية الثانية أنهم نفسيا لا يريدون لهذا الوجدان وتلك الأرضية أن تسود بل يريدون اقتلاع هذا الإنسان من تلك الأرضية ونزع ذلك الوجدان من داخله فكيف يمكن لهم أن يعبروا عن بطولات تؤكد تلك الأرضية وهذا الوجدان .

والناحية الثالثة أن حرب رمضان أثبتت أن الإنسان المسلم قادر على النصر وقادر على القتال وقادر على العطاء إستنادا إلى دينه وأن تلك المعركة إذا ما تم

ترجمتها فنيا فإنها ستؤكد حقيقة التركيبة الحضارية لأمتنا وتؤكد أن تلك التركيبة ليست قادرة على تحقيق الانتصار فحسب بل هى أهم شروطه - وهم يعرفون أن مهمتهم وهم كتبة السلطة وسدنتها أن يحاولوا نسبة كل نصر إلى الزعيم مثلا وأنه برغم تخلف شعبه كان متجاوزاً !! ووجدوا أن المادة اليومية للمعارك لا تسعفهم فسكتوا ولم ينطقوا .

وهم يعرفون أيضا أن التركيز على بطولات الإنسان فى تلك المعركة ستكون بمثابة عامل هام فى إيقاظ الوعى الحضارى لأمتنا وهم بالعكس يريدون غير ذلك .

وهكذا وجدناهم بين غافل وساكت أو حاول قليل منهم أن يجارى الجو ثم يعود فيلتف فقدم أعمالا أدبية حاولت أن تلصق بذلك الإنسان قيما لا يعرفها وأن تزرع فى وجدانه أشياءا ينكرها - فجاءت أعمالهم غريبة وقاصرة وغير مفهومة .

والناحية الرابعة أن هناك من حاول أن يلقى بظلال من الشك حول كل عمل إيجابى لأمتنا وأن يزرع فينا اليأس دائما وذلك خدمة لأهداف الاستعمار التى لا تريد لنا أبدا أن تتكون لدينا شخصية الاعتزاز والثقة فتجاهلوا وخنقوا كل ما من شأنه أن يحقق ذلك من ذكر للبطولات أو الجوانب الإيجابية فى تاريخنا المعاصر بالذات - وكان ذلك التجاهل لبطولات رمضان محاولة للقول بأنه كان استثناءاً وأن القاعدة هى حرب ١٩٦٧ برغم أن الحقيقة المجردة تقول أن الإنسان الذى أعطى وانتصر فى ١٩٧٣ كان قادرا دائما على ذلك وأن حرب ١٩٦٧ لم يكن له فيها ذنب - بل كان الذنب يرجع إلى القيادة السياسية التى أمرت بالانسحاب ولم تسمح لهذا المقاتل أن يقاتل وفى المرة الوحيدة التى سمح له فيها بالقتال أثبت قدرته وكفاءته .

وهناك سبب آخر هو أنه بعد مرور أقل من أربعة أعوام على حرب ١٩٧٣ دخلت القيادة السياسية فى لعبة السلام والتفاوض مما استلزم خلق نفسية أخرى ضرورية لهذا السلام وكان من الطبيعى أن تؤدى الأجواء الإعلامية التى صاحبت ذلك إلى إحداث نوع من الإحباط داخل الوجدان الفنى الشريف . .

ومع هذا ورغم كل هذا – ظهر فريق من الأدباء الشرفاء – الذين صنعتهم المعارك أو صنعهم الوجدان الشعبى المواكب للمعارك ولم تكن لهم مصلحة مع الدوائر الثقافية المشبوهة ولم يكونوا طرفا فى لعبة السياسة – قدموا الأعمال الفنية الشريفة والمستجيبة للحدث – وعلى هؤلاء وعلى آخرين مثلهم على الطريق أن يحققوا العبور الفنى لتسجيل بطولات حرب رمضان كما سجل أخوة لهم العبور العسكرى فى رمضان . وبرغم مرور تلك الأعوام على حرب رمضان فإن الأمل معقود على هؤلاء وأولئك والله معهم .

* يبقى علينا أن نوجه التحية هنا إلى الأديب المسلم د . نجيب الكيلانى – فقد كان أول من تفاعل مع الحدث وأصدر عقب المعركة روايته الجيدة « رمضان حبيبى » كما ينبغى أن نوجه التحية أيضاً إلى الأستاذ محمود المنسى المحرر الأدبى لمجلة النصر التى تصدرها القوات المسلحة المصرية وهو الذى يطالب دائما بالاهتمام بأدب معركة رمضان المجيدة كما أنه قدم من خلال المجلة عددا من الأعمال والتحقيقات فى هذا الإطار كما أن له بعض القصص المنشورة التى استلهمت روح رمضان . وعلى كل حال فإن الأعمال الأدبية التى خرجت من عباءة رمضان كانت قليلة جدا ومنها رواية « الرفاعى » للأستاذ جمال الغيطانى وثلاثة مجموعات قصصية أصدرتها الهيئة المصرية للكتاب على أن أدب رمضان أوسع من هذا كثيرا . ومن ناحية أخرى فإن الأشكال الفنية الأخرى كالرسم والمسرح والسينما كانت متخلفة جدا فى هذا الإطار .

قاتلنا – فانتصرنـــا
نماذج لمعـــارك أخـــرى

لم تقتصر النماذج على حرب رمضان – لأن الأصل فى الإنسان المصرى أنه إذا قاتل انتصر – وأن الكوارث والهزائم التى لحقت بنا كانت بسبب تقصير القيادة السياسية أو إهمالها أو خيانتها ، ومما يؤكد ذلك مجموعة من المعارك حدثت فى أعقاب حرب ١٩٦٧ . تلك الحرب المشئومة التى لم يسمح فيها للإنسان المصرى أن يقاتل – فلما قاتل إنتصر .

– عقب حرب ١٩٦٧ – وبعدها بأقل من خمسة أيام – كانت قوة مصرية قد تشبثت بمواقعها شرق القناه فى منطقة رأس العش ببورفؤاد ، وقد حاولت القوات الصهيونية فى إطار رغبتها فى السيطرة على كل الضفة الشرقية القناة أن تدمر تلك القوة الصغيرة أو أن تدفعها إلى الانسحاب إلى الضفة الغربية للقناة ، وهكذا توالت الهجمات الصهيونية بالطائرات والقصف المدفعى وهجوم الدبابات – ولكن تلك القوة قاتلت ببسالة رغم الظروف النفسية وعدم تكافؤ القوى بين الطرفين وإستطاعت أن تنزل بالقوات الصهيونية خسائر كبيرة – وتكررت عمليات الهجوم والصمود – وتمسكت القوة الصغيرة بمواقعها ولم تبرحها . وفى كل مرة كانت تنزل بالعدو خسائرا فادحة – واضطر العدو فى النهاية إلى الغاء العملية – وهكذا أثبتت تلك القوة الصغيرة أن الإنسان المصرى قادر رغم أشد الظروف قسوة على القتال والانتصار .

– فى أعقاب حرب ١٩٦٧ – قام الطيران المصرى – بقايا الطيران على الأصح – بإنزال ضربة جوية مكثفة وخطيرة بالقوات الصهيونية فى سيناء

وأوقع خسائر فادحة بها وعاد معظمها سالما – ولعل هذه المعركة فى مثل هذا التوقيت والظروف تثبت أن العيب لم يكن فى رجال الطيران المصرى – طيارين وفنيين – بل كان فى القيادة المتراخية .

– فى عام ١٩٦٨ – بعد عام واحد من حرب ١٩٦٧ – استطاعت زوارق الطوربيد المصرية أن تدمر المدمرة الإسرائيلية « إيلات » – ولعل الفارق الهائل بين قوة المدمرة وقوة زورق الطوربيد توضح إلى أى مدى يكون الإنسان المصرى فذا – هذا المقاتل الذى يستطيع أن يغرق مدمرة بقارب طوربيد لابد أنه جندى كفء شديد الكفاءة وجرىء شديد الجرأه وشجاع شديد الشجاعة – وتلك الموقعة تثبت أن الإنسان أقوى من الآلة وأن المقاتل المسلم إذا قاتل انتصر .

خاتمـــة

لا نملك بعد هذا السرد – وتلك الوقائع إلا أن نؤكد عددا من الحقائق التى لا يرق إليها الشك . وهى .

– أن المقاتل المسلم كفء بطبيعته – وشجاع بفطرته – وقادر على النصر .

– أن الإنسان أقوى من الآلة – فمهما كانت كفاءة السلاح وتفوقه فإن الإنسان قادر بالصبر والشجاعة على تجاوز هذا التفوق وقادر على تحقيق الانتصار فى كل الظروف وفى أسوأ الأحوال – فالأصل هو الإنسان – ولعل هذا يجعلنا نقرر بوضوح أن أمتنا قادرة على تجاوز كل التحديات مهما كانت كبيرة إذا امتلكت الإيمان والإرادة وبذلت كل ما فى وسعها من جهد وطاقة .

* أن مدد الله تعالى حقيقة لا يرق إليها الشك – وهو مدد مرتبط بشروط . أولها طاعة الله تعالى وثانيها بذل كل الجهد وأقصى الطاعة واستكمال أسباب القوة بقدر الإمكان .

– أن الحروب التى هزمنا فيها – لا تصلح أن تكون معيارا لتقييم الجندى والمقاتل المسلم – حيث أن القيادة السياسية لم تسمح فى أى منها لهذا المقاتل أن يلتحم ويقاتل ويظهر كفاءته وشجاعته – وأنه حينما قاتل هذا الجندى فى المعارك المختلفة أحرز النصر وبالتالى فإن الحقيقة الضخمة تقول .

إننا إذا قاتلنـــا إنتصرنـــا

ولعل هذه الحقائق وغيرها تكون نبراسا لأمتنا الإسلامية فى صراعها مع الاستعمار الدولى – ولعل درس أفغانستان يؤكد هذه الحقائق .